محطاتٌ وعِبر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة/منقحة ومزيدة

١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م

محطاتٌ وعِبر

الدكتور عبد الحميد القضاه

الفهرس

المحتوى **الصفحة**

١ – تقديم: بقلم الأستاذ سالم الفلاحات

٢ – مقدمة الكتاب

٣ – مقدمة الطبعة الثالثة

٣ – النشأة والطفولة

٤– شكرا للخوري

٥ – من الأردن إلى البصرة

٦ – الدراسة في جامعة كراتشي

٧ – الجار الكفيف

٨– عودة إلى الأردن

٩ – الدراسة في باكستان من جديد

١٠ – لا تُصدق كل الذي تسمع

١١ – بعثة للدكتوراة ولكن....!!

١٢ – الدراسة في بريطانيا

١٣ –إحفظ الله يحفظك...

١٤ – السكن عند العجوز في مانشستر
١٥ – فتوحات وتوفيق في مانشستر
١٦ – الناس في مساجدهم والله في قضاء حوائجهم
١٧ – عودة إلى الوطن مع الإصرار
١٨ – وللآخرين نصيب
١٩ –الجلسة العائلية
٢٠ – وفاء للوطن
٢١ – معاناة صامتة
٢٢ – أحداث وشائعات
٢٣– المشاركة اكثر ايجابية !!
٢٤ – الالتزام بالموعد عبادة
٢٥ – شيخ يشفع لقسيس
٢٦ – ابتسامتك وهندامك ايها الداعية
٢٧ – ويسألونك عن حماس
٢٨ – زيارة بعد عشرين عاما
٢٩ – مشروع وقاية الشباب

٣٠ – ما هو المشروع / الهدف والمضمون
٣١ – الإنجـــازات حتى الآن
٣٢ – لكل شيء إذا ما تم نقصان
٣٣ – المحطة الآخيرة.

تقديم

بقلم الأستاذ سالم الفلاحات

اطلعني أخي الأديب الأريب الدكتور عبد الحميد القضاة على مخطوطته القيمة، تحت عنوان "محطات وعِبر"، وطلب اليّ أن أضع لها مقدمة، ولقد سبقني لأتشرف بذلك بطلب مني، ولكنّه الكريم كعادته.

كنتُ أفكرُ – ومن خلال مركز دراسات الأمّة – في كيفية استخراج بعض تجاربه في الحياة، وأعلم أنها لا تخرجُ منه إلا بشق الأنفس، وهذا حالُ الكثيرين من الأخيار العاملين في ميدان الدعوة الإسلامية، فقلّما كتب أحد منهم مذكراته تواضعاً وزهداً، وربما خوفا من القيل والقال... فقلتُ في نفسي وكيف بأبي محمد الأكثر تواضعاً والأكثر خشيةً من الرياء.

ومن أجل أن أُجنبه الحرج، فكرتُ في استخراجها على لسان غيره، إجابة عن أسئلة، أو نتيجة حوار أو كتابة من صديق قريب، لكنّي لم أجد لذلك مدخلاً مناسباً، وهذا كلهُ قبل أن اطلع على المادة التي كتبها، ولأنّ الله يُسخّر عباده المؤمنيين لما يُحبُ ويرضى، شاء جلّ وعلا أن تأتينا إلى المركز جاهزة، دونما عناء منّا يُذكر، فجزاه الله عنّا خيراً.

ولّما شرفني بكتابةِ مقدمةٍ لهذه المذكراتِ، أخذتها على عجلٍ، وركبتُ سيارتي ووضعتها بجانبي، حتى إذا توقفتُ عند إشارةٍ مروريةٍ، أو بسبب ازدحام في العاصمة، استرقتُ النظر إلى صفحتها الأولى، فالثانية ثم الثالثة... وهكذا حتى وصلتُ البيت، حتى إذا خرجتُ بعد ساعة للمشاركة في مناسبة اجتماعية أخذتُها معي، حيثُ قاد سيارتي أحد أولادي هذه المرة، فاستثمرت وقت المسير بالقراءة السريعة وهكذا حتى المساء، وربما لم اترك دقائق فراغ إلاّ اطلعتُ على بعضها، وفي صباح (الجمعة) اليوم التالي انهيتها قبل صلاة الجمعة.

وجدتُ أني لم اقرأ مذكراتٍ عادية، إنّما قرأتُ حِكماً، يظلمُها العنوانُ لتواضعه، ففي الحقيقةِ إنها فصولٌ في مدرسةٍ إنسانيةٍ ريادية متقدمةٍ، يفوتُه خيرٌ كثيرٌ منّ لم يُطالعها ويتأملها، ويأخذ منها الدروس والعِبر، سيما وهي من أعماق قلب مجربٍ صادقٍ مرّ بظروفٍ عديدةٍ، لا يكادُ يخلو من المرور بها عامل جاد في المستقبل، وقلّما رأيتُ مذكراتٍ كان صاحبها يستحضر العِبر والنفع لغيره، حتى لو كانت الصراحةُ محرجة وتستخرجُ بعض خصوصياته، لم أتركها حتى انتهيتُ من قراءتها الأولى، وسأعاود قراءتها مراتٍ ومراتٍ بإذن الله.

وعلى اختصاره لهذه المذكرات، رغم إلحاحي عليه أن يُسهب فيها، فقد حوت مادة جميلة بليغة عميقة عملية دقيقة وحساسة أحيانا،

وكأنها خطوطٌ عريضة في حياة الدعاة والمصلحين وأصحاب المبادئ والرسالات.

يستوقفك جمعهُ بين التزامه الإسلامي وحرصهُ أن لا يحوم حول حمى المحظورات، حتّى في أحلك الظروف وأصعبها عليه، إلاّ أنه كان عالمياً إنسانياً استيعابياً لدرجة هائلة، أسرَ قلوبَ منّ عايشوه عن قربٍ، فدعاهم بسلوكه وأخلاقه وأهل بيته، وستجد ذلك في سكناهُ عند عجوز مانشستر، أو من خلال الأستاذه الدكتورة "آن مستراتس" التي أشرفت على رسالته، ثم زارته بعدها مراراً، أو من خلال وساطته لقسيس أردني...

وهذا هو مفتاحُ شخصيته، يألفُ ويُؤلف، ويُؤَلِفُ القلوب النظيفة ويتعاهدها، وهو أصعبُ أنواع التأليف.

كنتُ أظنُ أنني أعرفهُ معرفة تامة لقربي منه، ولقد اكتشفتُ أنني لا أعرف عنه إلاّ القليل النادر، بعد أن قرأتُ مذكراته القيمة، شأنه شأن أخيه المرحوم بإذن الله المهندس خالد القضاة "أبي المعتصم" وأنت تظنه لصمته رجلاً عادياً جداً، حتى إذا استنطقته، فتح عليك بحراً زاخراً من العِلم والتجربة الثرية، كيف لا، وهما من عشيرةٍ عريقةٍ أكرمها اللهُ، فتميزت بكثرة عُلمائها، وخاصة حملةُ العلم الشرعي وحفظة كتاب الله.

هو صاحبُ مشروعٍ يعيشُ له، يخرجُ بماله ونفسه ووقته وأهله في سبيل الله، يُسافرُ ويُحاضرُ ويوزعُ الكتب النافعة ويطبعها على نفقته الخاصة، حتى يُصبحُ كرمُه تهمةً يُسألُ عنها، مع أن الكريم حبيبُ الله، والكرمُ صنو الإيمان وعلامته والدليلُ عليه، ويعوضُه الله خيراً عظيماً، ما عرفتُ أسخى منه في الأحياء في بلادنا ممن عرفت، ولا يعرفُ المنّ ولا الحرص على المال ومُتع الدنيا.

هالني توكلهُ العظيم مع العمل الجاد المتواصل، حتى كان من الاوائل في كل منعطف فيه سباق وتقييم جاد، وعلى مستويات عربية وإسلامية وعالمية، لا تظن أنني أعني فقط ماذكره من تفوق دراسي وبحثي، فهو لم يكتب من هذا التفوق إلاّ ما لا يُمكن إخفاؤه، أما الأعظم والأهم فيُبقيه بينه وبين ربه.

تسابقَ الناسُ إلى مواقع المسؤولية الأولى في جماعة الإخوان المسلمين، وذهبت إليه الوفودُ الإخوانية والشعبية وشبه الرسمية حتى حصل ما يشبه الاجماع عليه، وهذا لم يحصل لغيره، لكنّه رفض، وعند إحراجه، وضع شروطاً يعرفُ أنها تعجيزيةٌ لإنقاذ نفسه، والتفرغ لما يحسُ أنه يُتقن وينفع.

لم يحمل على أحد ولم يحقد، ولم يُعاتب الذين أساءوا إليه مراتٍ ومراتٍ، بل لقد تودد إليهم مراراً، فهو يفقه الحديث الشريف الذي

وجه فيه الرسولُ ﷺ السائل عن قرابته الذين يُحسن إليهم ويُسيئون إليه ويصلُهم ويقطعونه فقال: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونَنِي، وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «لَئِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلا يَزَالُ مِنَ اللهَّ مَعَكَ ظَهِيرٌ، مَا زِلْتَ عَلَى ذَلِكَ» رواه مسلم.

لم يذكر من المعاناة ما كان يعنيه شخصياً، إنما فقط دفاعاً عن غيره وبإشارات سريعة.

تستطيعُ القول أنه صاحبُ المشروع العالمي «مشروع وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً والإيدز»، يجتهدُ أن يُدرّب فِرقاً في دول كثيرة في العالم، لا يكلُ من السفر مع تكاليفة المادية والجسدية والأمنية وغيرها، ورغم وضعه الصحي، وعلى حساب عمله الخاص في مختبراته، التي يجعلُ كل أعماله الدعوية والتطوعية على حسابها، فهي دُنياه التي يزهد بها، ودون تفريط من أجل الواجب العام.

أراد من مذكراته أن تكون للشباب فقط، لأنه يعني ما يقول ويعرفُ هدفه منها، لولا رجائي له بأن يجعل الخير عميماً للجميع، ولئلا يُتوهم من العنوان الحصر على الشباب فقط، إنه يتذكرُ ويكتبُ لمراحل في حياة الأمة، لا لمذكراته الشخصية.

لقد تميز الكتاب بميزات عظيمة منها:

- أنك تقرأ قِطعا أدبية بليغة لا يُتحدث بها في العادة.

- تعجبُ مرة وتقفُ طرباً أخرى وتضحكُ ثالثة وتقفُ متأملا رابعة.

- مذكراتُه، أو وقفاتُه، كأنما هي مجموعة مقالاتٍ هادفة، لا تحتاجُ إلاّ لعناوين وفواصل، لتُزاحم أعظم الكُتب وأنجح المقالات.

لا أريد أن اقتحم على أخي أبي محمد ما أعرف عنه من إيجابيات كثيرة، هو لم يُرد ذكرها، فأخشى أن تسوءه، ولكنّي سأشهدُ بها عند الله يوم نلقاه، وأرجو أن لا ينسى من يحبُهم قلبه من دعائه، لنكون على الطريق وعند الله في الجنة في مقعد صدق وخير.

أصدقُ القارئ الكريم أنني لم أتمكن من ترجمة المشاعر والانطباعات التي انتابتني أثناء قراءة الكتاب، لتدفقها وتزاحُمها وتنوعها لأحولها إلى كلمات مكتوبة، لكنّ العليم الخبير العادل سينفعه بها دون أن تُنتقص في الدنيا، لم أنس أن أقول لأخي الدكتور عبد الحميد القضاة ليُخفف من حساسيته بذكر ما يجبُ ذكره و الله يقول:﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾﴿٢٧١﴾.

وأخيراً، لو أردتُ أن أكتب ابتداءً عن صاحب الكتاب، لكنتُ أكثر حرية بذكر ما أقولُ عنه من تفصيلات كتمها هو، وستُتاح الفرصةُ لمن

زاملوه وعاشروه ليذكروا أضعاف أضعاف ما ذكر في هذه المذكرات.

تجربة تستحقُ التوقف والمُدارسة من الجيل ومن الدعاة ومن السياسيين ومن الأمهات ومن الشباب والشابات، يصعبُ تقليدُها تماماً، لكنّ الإفادة منها متاحة، وكتابٌ يُضيفه لرصيد كتبه ومحاضراته وندواته ودوراته وإسهاماته المتعددة، قال احد أبنائي عندما اطّلع على وصف الكتاب لو أسماه «عذبُ الكلامِ» !!.

«لقد أطلتُ الرِشاء - كما تقولُ العربُ - فدونكم السـقاءُ كلّه»، هو هذا الكتابُ الجميلُ لهذا المجرّب المتجرّد النافعُ لغيره، كتب اللهُ ذلك كلّه في ميزان حسناتِه ونفعنا به، اللهم آمين.

سالم الفلاحات

المراقب العام السابق لجماعة الإخوان المسلمين

مدير مركز دراسات الأمة سابقاً

عمان - الأردن

٩ / ٩ / ٢٠١٣ م

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

تمر الأيام دون أن نشعر بكثير منها، كلّ يوم يُسلمنا للآخر دون أن ننتبه، تمر بنا أحداث كثيرة، يتصرف أحدنا إزاءها تبعاً لنضجه وحكمته، فهنيئاً لمن وفقهُ الله، فكان يومهُ خيراً من أمسه، وغدهُ أفضلَ من يومه، وما أجمل ما نُسب إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – حيث كان يقول: (ما ندمتُ على شيء، ندمي على يوم غَرُبت شمسهُ، نقص فيه أجلي، ولم يزدد فيه عملي).

تمر لحظات يستذكر فيها المرء شريط حياته، فيحمدُ الله تارة ويستغفره أخرى على مواقف أصبحت بحلوها ومُرّها، وبصوابها وخطأها، جزءاً لايتجزء من سيرته وماضيه، وهو إزاءها على مفترق طرق، فإن بادر لتلافي ما فات من أخطاء، فقد سلك جادة الصواب، واستبرأ لحاضره، واستفاد لمستقبله وآخرته، من مراجعته لشريط حياته وذكرياته.

هذه مجموعة من الأحداث والمواقف حصلت معي وسطّرتها واحدة تلو أخرى على موقعي في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وشبكة

التواصل الاجتماعي (الفيس بك) موجهة للشباب، للاستفادة منها في مراحل حياتهم المختلفة، وما كنتُ أنوي يوماً أن أضعها في كتاب لولا المطالبات الحثيثة من الشباب الذين أذهلوني في متابعاتهم وتعليقاتهم المختلفة، فاستعنت بالله وجمعتها تحت عنوان «محطاتٍ وعِبر»، آملاً أن يُنتفع بها.

وهذا العمل جُهد المقل، وهو اجتهاد يحتمل الصواب والخطأ، فإن كانت الأولى فهي من توفيق الله، وإن كانت الثانية فهي من ضعفي وقلة حيلتي، ويبقى عزائي أنني قصدت بها وجه الله تعالى، كما يبقى أملي عفو القارىء، سائلاً الله تعالى أن يرحم ضعفي، ويغفر تقصيري، فهو أهل ذلك والقادر عليه.

الدكتور عبد الحميد القضاه

١١\٩\٢٠١٣ م

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، فالق الإصباح والحب والنوى، عَالِمِ الْغَيْبِ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على بدر الدجى ونور الهدى ومصباح الظلم، نبي العرب والعجم، سيد الكونين وشفيع الثقلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لم أكن أتوقع يوماً أن ينال هذا الكتاب (محطات وعِبر) ما نال من ثناء وإطراء، ولذلك طُبع أكثر من مرة، وبعد أن نضب، كان لا بد من طباعته مجدداً، بنسخة منقحة ومزيدة، حيث أخذتُ بنصائح بعض الأحبة، فأزلت منه بعض أجزائه الأبعد عن العنوان، وأضفتُ إليه بعض القصص والأحداث التي فاتتني في السابق.

آملاً أن تتحقق منه الفائدة الأكبر للقُرّاء، وخاصةً الشباب الذين سيمرون حتماً بمثل هذه المحطات، لعلهم يستفيدون من تجارب غيرهم، فيأخذوا بأحسنها، ولعلي أكسبُ بعض الأجر والثواب من العزيز الحكيم.

الدكتور عبدالحميد القضاة

١/ ١/ ٢٠٢٠م

النشأة والطفولة

عين جنا قرية صغيرة وادعة، إنها مسقط رأسي، فيها أترابي وأحبّ الناس اليّ، لها من اسمها نصيب، فهي جنّة لكثرة عيون المياه العذبة فيها، تعلو مدينة عجلون من الناحية الشرقية، وكانت تبعد عنها قرابة الميلين، عندما كان تعداد سكانها لا يتجاوز الألف نسمة في الخمسينات من القرن الماضي، لكنها اندمجت بها مؤخراً بعدما نمت البلدتان وتكاثر سكانهما.

تترامى بيوتها المتواضعة على أطراف الوديان، حيث تتمايل على ضفافها أشجار الحور العالية وعلى سفوح الجبال المرتفعة، التي تكسوها أشجار البلوط والملول والبطم والقيقب، وحيثما تجولت بين تضاريسها المختلفة، وجدت ينابيعها العذبة، التي تروي سكان القرية بواسطة النسوة اللواتي يُحضرنه على رؤوسهن للبيوت (الملاّيات).

أما الفائض من الماء الكثير، فينساب رقراقاً بهدوء، عِبر أقنية طبيعية متعرجة، لا يُعكر صفو هذا الهدوء إلاّ معاول أصحاب البساتين، لشق أقنية فرعية لري مزروعاتهم المختلفة، التي تُزود أصحابها ثم السوق المحلية بالفاكهة والخضراوات والثمار المختلفة.

كانت الحياة في قريتنا بسيطة بكل ما تعني الكلمة، شوارعها ترابية متعرجة، ضيقة ومعدة لوسيلة النقل الرئيسة في ذلك الوقت (الحمار)

وليس للسيارات، لأن السيارات كانت نادرة في حينها.

إنها حياة زراعية بسيطة بدائية، والكل منشغل بها، ولذلك ربّما لاترى بيتاً إلاّ وجدت فيه غنماً وبقراً وحميراً، وهي من المستلزمات الضرورية للزراعة، أما منظر قطعان الأغنام العائدة من الرعي مع الغروب، فتتساوك من شبعها وكثرة حليبها، فمنظر طبيعي جميل مألوف، حيث يتسلم كل بيت أغنامه من راعي القطيع، للاستفادة من حليبها، ثم ليُعيد تسيلمها للراعي صباح اليوم التالي وهكذا، الحياة تعاونية، الكل يشعر مع الكل، يقضون حاجاتهم المستعجلة من بعض، حتى الخبز يقترضه الجار من جاره إذا اضطر لذلك، حيث لم يكن يعرف أهل القرية المطاعم ولا الملاحم في حينها.

حياتنا كانت بسيطة بدائية، فبيوت القرية قليلة، متباعدة، مبنية من الحجارة والطين، الذي كان يُجدد بعضُه الخارجي سنويا بمهرجان نسائي حميم (الفزعة)، حيث تجتمع الكثير من نساء القرية لمساعدة صاحبة البيت لإعادة (تطيينه) أي تجديد ما تآكل من الطين بسبب الشتاء السابق، ومقياس الثراء في هذه البيوت هو عدد القناطر التي تقوم عليها، فكلما زاد عددها، عُدَّ صاحبها أرقى وأهم، وهذه البيوت (العقود ومفردها عقد) تتفاوت إضاءتها تبعاً للحالة الاجتماعية والاقتصادية لصاحبها، أقلها (القنبور)، وأوسطها (بنورة رقم٢)، وأعلاها (الشمعدان ثم

اللكس) الذي لا يملكه إلا من كان ذا حظ عظيم!!!.

أما العقد ذي القناطر المتعددة، فقد صُمم على الطريقة الأمريكية (مستويات عِدة)!، ارتفاعه لا يقل عن ستة أمتار، جدرانه سميكة، تحتفظ بالحرارة شتاءً والرطوبة صيفاً، إذا دلفت من بابه الواسع، وجدت نفسك في المستوى الاول، ويُسمى (قاع البيت)، بمساحة لا تقل عن عشرة أمتار طولاً، وأربعة أمتار عمقاً في داخل البيت، هذه الساحة هي لتخزين بعض الحطب في زاوية، ثم التبن في الزاوية الأخرى، وما بينهما منام للبقر والحمير والأغنام.

فإذا تقدمت أكثر في العقد، واجهك جدار استنادي بارتفاع متر ونصف تقريباً، تتوسطه درجة بدائية تنقلك إلى المستوى الثاني المسمى (المصطبة)، وهي لا تقل مساحة عن سابقتها، وهي معدة للسكن البشري (للولد وولد الولد)، تغطيها راعية البيت بالمفارش الصوفية كالفجّة والمفرش، وهي صناعة محلية، تتوسط هذه المصطبة دائرة منخفضة نسبياً، قطرها مترٌ واحد على الأقل تسمى (النقرة)، وهي التي تُشعل فيها النيران من الحطب – رغم دخانها الكثيف داخل العقد- للتدفئة والطبخ والشاي ودلال القهوة...الخ.

فإذا استقر بك المقام على المصطبة، وقُدِّر لك أن تنظر إلى يمينك، فسترى صوامع طينية شامخة (الكوايز)، وظيفتها تخزين القمح على مدار

العام، وإذا رأيت ثم رأيت شمالك، فستجد درجات ربما لاتزيد عن الخمسة، تقودك إلى المستوى الثالث الذي يُسمى (العُلّيّة)، وهي غرفة النوم الرئيسية للوالدين (الماستر روم)، حيث يرقبان المشهد الكلي من علٍ، ويشاهدان كل ما يحدث في المستويات الدنيا، بينما لا يراهما من البشر أحد، وأرجو أن لا يخطر ببال أحد أن يسأل أين الحمامات (التواليت)؟!، حيث لا وجود لها في العقد!، اللّهم إلا من (لقن) دائري مصنوع من الألمنيوم، تضعه الأم في طرف من اطراف (قاع البيت)، ليبول به الأطفال ليلاً، لأنهم لا يقوون على الخروج ليلاً إلى الساحات العامة المعتمة، حيث تُقضى حاجات الكبار، وعندما تختلط (النغمات) المشكلة من أصوات وقع البول في اللقن مع عُطاس البهائم وثغاء الأغنام وشخير جمهور النائمين، تتكون معزوفة موسيقية نادرة، عجز عنها (بتهوفن) وتلامذته من بعده.!

والشيء بالشيء يُذكر، حيث عزم والدي – رحمه الله – يوماً على إيجاد مرحاض (تواليت) في فناء الدار، ورغم غرابته وندرته في ذلك الوقت إلا أنه كان ضرورياً، كان لابد من تحضير الجورة (الحفرة الامتصاصية) أولاً، وهي حفرة كبيرة لا تقل عن ثلاثة أمتار طولاً، وأربعة أمتار عرضاً بعمق أربعة أمتار أيضاً، وهذا العمل كان لابد أن نقوم به يدوياً، فالوالد يحفر بالفأس، وأنا وأخي ننقل التراب بعيداً بواسطة ما يُسمى (العربية اليدوية)، كان العمل مضنياً بالنسبة لنا، حيث أشعة الشمس الحارقة،

وبُعد المكان الذي ننقل اليه التراب، الذي لا يكاد ينتهي لكثرته، وعندما أصبح عمق الحفرة اكثر من مترين، كان لا بد من أن يكون أخي في داخل الحفرة لتعبئة (القفة)، بالتراب ثم ربطها بالحبل الذي أوله عندي في الأعلى، حيث نرفعها سوية، أخي يرفع من الأسفل وأنا أسحب من الأعلى، ثم أفرغها (بالعربانة)، تتكرر العملية حتى تمتلىء العربانة لجرها بعيداً والتخلص من التراب.

في ظهيرة يوم قائض، شديد الحرارة، وقد تبللنا جميعاً من كثرة التعرّق، وأخذ منّا التعبُ كل مأخذ، بحيث أصبح الواحد منّا لايُطيق نفسه، في هذا الجو الخانق حاولت وأخي رفع قفة مملوءة بالتراب كالعادة، لكنّها تعثرت قليلا في طريقها إلى أعلى، مما جعل التراب والغبار يتساقط على رأس أخي وجسده المبلل بالعرق، فاستشاط غضباً، ولأنه أكبر مني سناً، صب جام غضبه عليّ، وحاول أن يضربني بما تيسر له من حجارة في الحفرة، ولقد كنت أستغيث وأبكي من ألم الضرب والشعور بالقهر من الظلم الذي يُمارس عليّ.

والشاهد من القصة هو موقف والدي، كبير السن، المرهق من كثرة التعب والهمّ، المشفق على ولديّه، حيث أن أحدهما أصبح أشعث أغبر من كثرة التراب الذي وقع على راسه وكامل جسده، وبين بكاء وتوسلات الصغيرالمظلوم المستنجد بأبيه، فقال كلمته المشهورة باللهجة

العامية وبصوت عالٍ: "ولكو اتقوا الله.... ولكو انتو مثل اللي بجهنم وبتباع...)!، أي كيف تتشاجرون وتنشغلون بتوافه الأمورعن هذا الجو الخانق المزري، ودرجت هذه المقولة مثلا على ألسنة الناس، يتداولونها كلما مر بهم ضيق خانق، وواجهتهم مشكلة كبيرة جداً، انشغلوا عنها بأمور تافهة لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى المشكلة الرئيسة.

نعم، هي حياة بدائية، إذ غالباً ما تنام القرية بعد صلاة العشاء مباشرة، إذ لا مذياع ولا تلفاز، حيث يعتمدون في سماع الأخبار على الحارس الذي يسردها لهم كما سمعها، او يجتمع القوم، فيسمعون للمختار المكرّم، بعد أن يعتلي فرشتين من الصوف (لأنه من طرف الحكومة).

حياة بسيطة قريبة من الفطرة، إذ أن كل واحد يعرف ما له وما عليه، وبالتالي لا وجود للجريمة، لا المنظمة ولا الفردية، فالأمن مستتب، ويتولى المختار الحفاظ عليه بواسطة الحارس، كيف لا وهو الذي يقوم بدور مدير الأمن العام ومدير المخابرات العامة، فهو عين الدولة في القرية، ليس هذا فحسب بل هو (مُضيف) للحكومة عندما تحتاج إلى جمع الرسوم والضرائب والغرامات، حيث يحضر الجابي (التحصل دار) وبمعيته عسكري من الفرسان، الذي يقبض الرسوم المقررة، ويقتاد المطلوب منهم إلى العدالة، واذا حصلت سرقة ما لبقرة أو خروف،

فيُستعان رسمياً بمقتفي الأثر (القصّاص) ليتتبع أثرها حتى يضع يده عليها ويُعيدها إلى صاحبها، ويتولى عساكر الدرك التحقيق في الحادث مع أصحاب السوابق.

وفي نفس السياق، فإن من المتعارف عليه في حينها ندرة التعامل بالمال، بل تستطيع أن تشتري من الدكان ما تريد بالبيض، وهو إنتاج محلي، أو بالقمح أو بالزيتون في موسمه، والعادة الأخرى أن الحياة كانت تدب في القرية من بعد صلاة الفجر... حيث يكون الناس قد استراحوا ليلهم الطويل لأنهم كانوا ينامون مبكرين بعد صلاة العشاء.

الوالدان كغيرهما من أهل القرية، مكافحان بسيطان متدينان بالفطرة، نذرا حياتهما لتربية أولادهما، وكان عملهما الرئيسي في الزراعة، ومصدر رزقهما من الأرض، ولي من الإخوة الذكور أربعة ومن الإناث خمس، طفولتي عادية جداً، ولكن طابعها العام الفقر والحرمان، إذ كانت العائلة مكونة من إثني عشر فرداً يعيشون في دار قوامها غرفة واحدة؛ هي للنوم، والاستقبال، والطعام، والأثاث وتخزين المؤن السنوية من القمح والزيت والجميد (اللبن الجامد المجفف)، أما فناء الدار فزاخر بمجموعات من الدجاج البلدي، كل مجموعة وراء ديكها، صاحب الولاية والعُرف المرتفع، حيث يهزه بخُيلاء وهو يتقدمها إلى جُرن الماء الخاص، هذا القطيع من الدجاج كان يُؤمّن حاجتين غذائيتين رئيسيتين

هما اللحم والبيض، فيُسبغان نوعاً من الطمأنينة والأمن الغذائي في نفس صاحبها، ليُمارس كرمه إذا ما داهمه ضيف دون موعد، خاصة (الطّواف) حارس أشجار الغابة الذي كانت له هيبة عظيمة في نفوس الفلاحين.

بقيت الغرفة سالفة الذكر (بيت العائلة) هكذا وحيدة حتى بُنيت شقيقة لها لتحمل معها بعض هذا العبء الثقيل.

كان الوالد – رحمه الله – منهكاً من كثرة الأعباء والهموم؛ لذلك أوكل جزءاً كبيراً من مهامه التربوية للابن الأكبر، وجزءاً من أعبائه المادية للابن الثاني– رحمهما الله – كان هَمُّ الابن الأكبر لا يقل كثيراً عن الوالد، فقد كان عصامياً مبدعاً، وقد جاهد حتى أصبح مهندساً زراعياً (المهندس خالد القضاة أبو معتصم)، بأقل تكاليف الدراسة حيث درس في تركيا، ثم قَبِل بمختلف الوظائف التدريسية، والزراعية، وفي مناطق نائية، كسباً للعيش، ومساهمة في تقليل هموم الوالد، ليخفف عنه بعض الأعباء المادية، خاصة في تغطية النفقات، أما الإبن الثاني (عبدالكريم أبو أمجد) فقد كان كسابقه مكافحا عصامياً، دخل الحياة العملية مبكراً، وقبل بكل الأعمال بحثا عما يستطيع تقديمه لمساعدة الوالد على أعباء الحياة الصعبة وتغطية نفقات الدراسة، وكذلك كان دور الأخوة الآخرين والأخوات، فقدم كل منهم ما يستطيع لمصلحة المجموع.

فرغم هذه البيوت الضيقة في القرية، والإمكانات القليلة، والتعب الشديد، وقلة ذات اليد، إلاّ أن الكبير كان يُعلّمُ الصغير ويحنو عليه، ويؤمّن حاجاته على بساطتها، والجار لجاره بل الكل للكل -عادة الفزعة أو العونة- فتخرّجت أجيال قوية البنية، حسنة اللغة رغم بساطة تعليمها، شديدة الانتماء، تتمتع بحس وطني وشجاعة وجدّية قلّ نظيرها، هذه الحياة القاسية نسبياً تظهر للوهلة الأولى بأنها لا تكاد تُطاق، لكنّها محشوة بالسعادة الحقيقية المستمدة من الفطرة والقرب من الأرض، والقناعة والرضا عن الذات، لأن الكل يأكل مما يزرع، نعم من إنتاجه الذاتي، قمحاً وفاكهة ولحماً، فيها الطعم الطبيعي البعيد عن الهرمونات والهندسة الجينية، والبعيد عن كل المسرطنات.

شكراً للخوري

في عام ١٩٥٥م لم أُقبل في المدرسة الحكومية الرسمية؛ لأسباب لا أذكرها جيداً، ربما تتعلق بالسن حيث كانوا لايقبلون منّ كانت سنّه دون السابعة ولو بشهر، واجتهاداً من صاحب القرار في البيت الذي كان لا يُريد أن أتأخر عن الدراسة، أرسلني إلى أحدى المدارس التبشيرية في عجلون، حيث كانت بعض الصفوف ملاصقة للكنيسة تماما، فداومت اليوم الأول واستلمنا الكتب (كان كتاباً واحداً أذكر منه طريقة راس روس دار دور)، في اليوم التالي جاء المعلم غاضباً لسبب لا نعرفه، فضرب الطالب الذي أمامي مباشرة بلا رحمة، فدخل معلم آخر (الخوري) ولعله كان المدير، عندما سمع الصياح والبكاء، فتوقف الضرب، ولمّا كنت أنا المرشح الثاني لذلك (للضرب) عُدت إلى البيت عاقداً العزم على أن لا أعود إلى هذه المدرسة، وعندما رويتُ القصة لأهلي، وافقوا على طلبي، فشكراً جزيلاً لهذا المعلم، على ضيق صدره، وسوء تصرفه؛ وشكراً للخوري المدير لأنه أنقذني مما لا تُحمد عقباه، وشكراً لله لأنه أراد لي الخير.

كانت بداية دراستي الابتدائية الأولى في مدينة عجلون، حيث البرد القارس والطرق غير المعبدة في حينها، علماً أنني كنت كغيري من الطلاب أذهب ماشياً ما مجموعه ستة كيلومترات تقريباً من قريتنا (عين جنا)، إلى

المدرسة في عجلون يومياً، ذهاباً وإياباً مرتين، لأن نظام الدراسة كان مختلفا حيث الحصص الأربع الأولى، ثم فرصة طويلة للغداء ثم عودة لباقي الحصص.

حصلت أمور كثيرة في عجلون أثناء دراستي الابتدائية لكنني لا أذكر منها إلا القليل، كانت مظاهرات كبيرة، شاركتُ في واحدة منها حيث توجهت المظاهرة إلى المستشفى المعمداني في عجلون فنهبته وأحرقته كُرهاً بأمريكيا، وشاركتُ في أخرى أحرقت خيام النقطة الرابعة التي كانت تعمل في عجلون أيضاً، وذلك لأنها ممولة من أمريكيا، وما زلت أتذكر أمرين: الأول مجيء جنود مموهي الوجوه يضربون الناس بلا هوادة، وكانوا يطلقون عليهم «جنود البادية»، والأمر الآخر أننا كنا نهتف مخاطبين التجار «سكّر يا قليل الدين.. ضاعت منا فلسطين» طالبين منهم أن يغلقوا متاجرهم ويشاركوا بالمسيرات.

وفي صيف عام ١٩٥٧م اضطُر والدي - رحمه الله - بعد التشاور مع مدير المدرسة أن أتركها قبل العطلة الصيفية بعدة أسابيع، أي قبل الامتحانات النهائية لأرحل معه والوالدة - رحمهما الله - ألى أرضنا المزروعة بالقمح، وهي مصدر الرزق السنوي الرئيسي لنا، وذلك بهدف الرعي بما نملك من غُنيمات (مصدر الحليب ومشتقاته إضافة للحوم) أثناء انشغال الوالد بحصد القمح وجمعه ودرسه لفرز الحب من التبن،

ولأن الرحلة الصيفية المعتادة للراعي الرئيسي لم تبدأ بعد، حيث يرحل صيفاً إلى أماكن سكنى الناس الذين يملكون الأغنام، لكن انتقاله في ذلك العام تأخر، فوقع الاختيار عليّ لأكون بديلاً مؤقتاً لرعاية أغنامنا الخاصة، ساعد على ذلك تعاون المدير خاصة أن الترفيع من صف لآخر كان تلقائياً في سني المدرسة الأولى.

كان الزي المدرسي في حينها موحداً بنوع من القماش الكاكي، يشترك به ابن الغني وابن الفقير، وكنا نتنافس بالتحضير لتفصيل بدلة المدرسة السنوية اليتيمة منذ اليوم الأول للعطلة الصيفية، وذلك بما كنا نجمعه من قمح من خلف الحصادين (اللقاط)، ومن بيع العنب والتين، ولكن كانت أكثر الأمور إحراجاً لنا هي حصة الرياضة البدنية، لماذا؟، ببساطة لأن (شورت) الرياضة كان يُخاط بيتياً من قماش أكياس الدقيق، التي كانت تتبرع بها أمريكيا للشعب الأردني، ومطبوع عليها من الصور والعبارات التي لا تزول بالغسيل في حينها، ففي حصة الرياضة لابد من خلع البنطلون لنلعب بالشورت، عندها كان ينكشف المستور، فهذا عليه عبارة «هدية من الشعب الأمريكي»!، وآخر «ليس للبيع أو المبادلة»!، وآخر تظهرعلية صورة يدين تتصافحان،! ولهذا لم يُفلح منا أحد بأي من الرياضات الرسمية، اللهّم إلاّ الرياضات الجبلية من ركض وما شابه.

أما في عام ١٩٥٨م حيث كنت بالصف الرابع الإبتدائي في مدرسة

عجلون الحكومية، والتي أُصطلح على تسميتها بمدرسة «توما» الإبتدائية (نسبة إلى مالك العمارة)، وكنت وزملائي نقطع الطريق مشياً على الأقدام بين عين جنا وبينها كما أسلفت، لذلك كنا نجتهد أن نسلك طُرقاً مختصرة قدر الإمكان، وفي طريقنا كان يسكن رجل عجوزٌ ضرير (أعمى)، ويبدو أن أحداً من الطلاب السيئين قد آذاه بشكل قاسٍ، وتحداه بعنجهية وقلة أدب، وقال له أنا فلان إذا اردت أن تشكوني (وذكر له اسمي)، وفي مدرسة «توما» الإبتدائية.

وفي صباح اليوم التالي جاء العجوز الأعمى يتهادى، متوكئاً على عصاه وبرفقة ولده، ليشكو للمدير عن ما حصل معه وذكر له إسمي، والمدير – رحمه الله – بين مصدق ومكذب لما يعرفه عني، وقد كان في المدرسة معلمٌ محترم من اقاربي، لكنه كان معروفاً بشدته (رحمه الله)، فما كان من المدير بعد أن استدعاني، وحاولت بكل ما استطيع إقناعه ببراءتي من دم العجوز، إلا أنه دفعني إلى الأستاذ القريب الشديد ليتصرف بما يراه مناسباً، فلما مثلتُ أمامه محاولاً إثبات براءتي، إلا أنه لم يُمهلني طويلاً حتى صفعني بيده صفعةً،لم أُدرك معها أين أنا؛ لا بل شعرت أن شرراً قد تطايرمن عيناي، فبكيت من أمرين؛ اولاً من شدة الظلم الذي وقع عليّ، وثانياً من حرارة الصفعة وقوتها. ولما أدرك الأستاذ ما أنا به، كأنه شعر أنني بريء، إكتفى بذلك على غير عادته، وقال إنصرف إلى صفك.

دارت الأيام؛ وعُرف الجاني الحقيقي، ومات العجوز -رحمه الله- وكبُر الأستاذ، وإعتذر عن ما حصل قبل وفاته -رحمه الله-، لكن ما الفائدة؟، ظلم وقع على بريء، أولاً من الجاني الحقيقي لأنه رماني بفعلته الشنعاء، وثانياً من أستاذي الذي كان له فضلٌ كبير عليّ، فما أكثر الجناة، بل ما أكثر المظلومين البُرأء الذين يقعون بشراك غيرهم زوراً وبهتاناً.

ذكّرني هذه الحادثة دائماً بمربي الأمين والمأمون، الذي أحسن تعليمهم وتأديبهم، إلا أنه في يوم من الأيام استدعى المأمون، فلما مثُل أمامه صفعه بيده وإنصرف، ومن شدة أدبه واحترامه لأستاذه لم يسأل لما ضربه مربيه، والمربي لم يُفسر له ذلك، دارت الأيام والسنين، وتولى المأمون الخلافة، فطلب أستاذه، ولما مثل بين يديه؛ إحترمه الخليفة وأجلّه ورحب به وأجلسه بما يليق به، ثم قال له الخليفة: أحسنت تعليمنا وتأديبنا فجزاك الله عنا خيراً، ولكن هل لك أن تُخبرني لمَ صفعتني في يوم كذا؟، فقال له أوما زلت تذكر ذلك؟، قال المأمون: بلى، كيف أنساه وأنا المظلوم؟!!، فقال له أستاذه: يا مأمون نظرت حينها في وجهك، فاعتقدت أن الإمارة ستؤول إليك، فأردت أن أُذيقك طعم الظلم كي لا تظلم، فدُهش المأمون من فراسة أستاذه وبُعد نظره وقال: أنت استاذي سابقاً وحاضراً.

كيف للمظلوم أن ينسى؟!، مهما طال الزمن، وتقلبت الظروف، وتبدلت الأحوال، فطعمُ الظلم خالط كل خليةٍ من جسمه، وطبقات

نفسه، يشكو بصمت إلى من عنده العدل المطلق، المطّلع على الجاني الحقيقي والبرئ المظلوم، وصدق رسولنا الكريم ﷺ حين أمرنا بقوله: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (البخاري)، كما صدق أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب حين قال:

لا تظلمن إذا ما كنتَ مقتدراً فالظلمُ ترجعُ عقباهُ إلى الندمِ

تنامُ عينكَ والمظلومُ منتبهٌ يدعو عليكَ وعينُ اللهِ لم تنمِ

فرغم مرور ستين عاماً على تلك الحادثة، إلا أنني لم أنسها، وكأنها الآن أمام ناظري، سامحت استاذي، وما لمت العجوز الأعمى، ولكنني لا زلت أعجب من الجاني الحقيقي، كيف سولت له نفسه أن يرمي بريئاً بجريمته الشنعاء.

وعندما كنت في المرحلة الإعدادية في النصف الأول من الستينات أرسلني أخي إلى مخيم صيفي في قمة جبل من جبال دبين، كانت تقيمه جماعة الإخوان المسلمين دورياً لشبابها، ويشترك فيه بعض أبناء الإخوان، كان مخيماً جاداً، يُعلّم تنظيم الوقت وكيفية الاستفادة منه، ناهيكم عن الرياضة والركض والمسير الطويل والمحاضرات المفيدة من كرام الإخوان وكبارهم، كما رتبوا لنا برنامجاً لحراسة المخيم ليلاً ونهاراً، ومن جميل التقادير أن تكون أول حراسة لي بعد منتصف الليل من

الساعة الثانية حتى الرابعة فجراً، وعلى الباب الرئيسي للمخيم، أعطونا كلمة السر وسلَّحوا كل واحد منا بعصاً. في فترة الستينات كان انتشار الناس قليلاً كما كانت الكهرباء ضرباً من الخيال، ولذلك كانت المنطقة معتمة وموحشة جداً، بل مخيفة لمن كان في أعمارنا في ذلك الزمن، خاصة في الجبال والغابات، هناك سكون رهيب لا يقطعه إلاّ عواء وأصوات بعض الحيوانات البرية التي تعيش في هذه الغابات.

ويقدر الله أن يزور المخيم فضيلة المراقب العام للجماعة الأستاذ محمد عبدالرحمن خليفة – رحمه الله – بعد الساعة الثانية صباحاً، أي وقت حراستي، ولأنني أعرفه في حينها من خلال أخي الأكبرالمهندس خالد القضاة – رحمه الله – فرحت لرؤيته، وسلمت عليه ورحبت به وفتحت له الباب، ودخل المعسكر دون أن أسأله شيئاً، وفي طابورالصباح، سأل رئيس المعسكر: من الذى كان يحرس الباب الرئيسي بعد الثانية فجراً؟، فقلت وبشيء من الفخر أنا، فاستدعاني أمام الطابور وسألني هل دخل المعسكر أحد أثناء حراستك؟، فقلت مرة أخرى وبشيء من الفخر، نعم دخل فضيلة المراقب العام، فقال: هل سألته عن كلمة السر؟، فصُدمت وتلعثمت، متسائلاً في نفسي هل يجوز لمثلي أن يسأله عن كلمة السر وهو من هو، ثم أجبت، لا، لم أسأله، فقال: لماذا؟ فقلت: لأنني أعرفه، فقال: ألا يمكن أن يكون شبيهاً له؟.

وهنا قدّم بعض النصائح لجميع من في الطابور، ثم استدار إلّي وأعطاني وعاء كبيراً (جركن)، وقال عقوبتك مخففة اليوم لجهلك، خذ هذا وإنزل إلى أسفل الجبل حيث عين الماء، إملأه كاملاً وإحمله على ظهرك وأحضره إلى هنا، فما كان مني إلاّ أن فعلت، ومن شدة التعب من العقوبة المخففة، قررت أن أسأل من يدخل المعسكر مستقبلاً ولو كان شقيقي. وهكذا هو فعل العقوبة التربوية الهادفة، لم أنسه رغم مرور أكثر من نصف قرن.

في نهاية عام ١٩٦٥م دخلت المرحلة الثانوية، الفرع العلمي، فكان لابد من الانتقال لمدرسة إربد الثانوية – مركز المحافظة – حيث يجتمع بها طلاب المحافظة الذين صُنفوا بالفرع العلمي، فدرست بها عامي ١٩٦٦م و١٩٦٧م حتى حصلت على الثانوية العامة منها.

ورغم أن إربد لا تبعد عن مسقط رأسي أكثر من ثلاثين كيلومتراً، إلا أنني كنت أشعر بغربة عجيبة، فاقت ما شعرتُ به خلال دراستي خارج البلاد العربية لاحقاً، كانت الطريق بين عجلون وإربد صعبة ووعرة وضيقة جداً، فعندما تلتقي سيارة بأخرى فلابد من أخذ كل إمكانيات الحيطة والحذر، ومن حُسن الحظ أن السيارات في حينها كانت نادرة، وكان أشهر وسائط النقل إلى إربد، حافلة أُطلق عليها مجازاً «الباص الطويل»، وسائقه هو صاحبه، ورغم مهارته في القيادة إلاّ أن

قلوبنا – نحن ركاب تلك الحافلة – كانت تتقطع من الخوف عندما كان يستديرُ للخلف بوجهه أثناء القيادة ويتكلم مع الركاب، فضيق الطريق وسرعة الباص وكثرة التعرجات تجعل الجميع في خطر، فعندما نبهناه لمخاوفنا، قال: (لا تخافوا فالباص يحفظُ الطريق غيباً).

لهذا السبب وغيره، ككثرة تساقط الثلوج ومايتبعها من إغلاق للطرق وتوقف شبه تام للمواصلات، كان لابد من السكن في إربد، علماً أن إربد كانت بالنسبة لنا هي المدينة الأعظم، بل هي نهاية الدنيا التي نعرفها في ذلك الزمن، لكن هي مشاعر صادقة لقروي في أول غربة.

مضت السنة الأولى في إربد، وتأقلمنا شيئاً فشيئاً مع الأمر، وكانت سنة الاعتماد الجزئي على النفس التي أسست لغيرها. وأهم مكسب كان أن تعرّفت على خيرة طلاب المحافظة الذين جاءوا من أطرافها للدراسة في الثانوية العلمية الوحيدة فيها، أمّا عام ١٩٦٧م فمر نصفه الأول كالمعتاد، لا ندرك كثيراً مما كان يدور حولنا، فلا إعلام إلاّ المذياع، ولا ثقافة عامة ولا نضوج ديني أو سياسي حتى ندرك حقيقة الأمور، وبالتالي وقعت الحرب المهزلة المخزية للجميع، فأصبح هذا العام عام الذكريات الحزينة لي، فقد ضاعت باقي فلسطين، واحتُلت القدس، ودُنّس المسجد الأقصى، وقبة الصخرة المشرفة، وقد كنت أرى الطائرات اليهودية –في حينها– وهي تقصف محطة الرادار والمراقبة في جبال عجلون تروح

وتجيء وكأنها تتسلى، وتُسقط من الحمم والقذائف ما تشاء، حتى حصل ما حصل. ولعمري هذا عار على كل مسلم لا يغسله إلاّ تحرير فلسطين كاملة من نهرها إلى بحرها، وما ذلك على الله بعزيز.

أما على الصعيد الشخصي، فقد حرمتنا الحرب من التقدم للامتحانات المتبقية للثانوية العامة، مما أثر على المعدلات النهائية سلباً، فكانت دماراً على البلاد والعباد.

من الأردن إلى البصرة !!

كانت رغبتي دراسة الهندسة، وفي سبيل ذلك تقدمت لجامعات عدة، وأمضيت عام ١٩٦٨م سعياً وراء ذلك، غير أني لم أُوفق في تحصيل القبول، لا أذكر ما الذي جعلني أفكر في باكستان،! فتوجهت إليها نهاية عام ١٩٦٨م عن طريق العراق، ثم بحراً في باخرة معدة لنقل البضائع إلى كراتشي، في رحلة بحرية مدتها ثمانية أيام بلياليها، فكانت بالنسبة لي تجربة فريدة من نوعها خلّفت ذكريات خاصة لا تُنسى منها:

أنني سافرت براً بالحافلة من إربد قاصداً البصرة في العراق، وكانت المرة الأولى التي أغادر فيها الأردن، وكنت أحمل معي متاعاً ثقيلاً في حقيبة كبيرة، وكنت أعد هذا السفر تحدياً لي، فهل أستطيع الوصول إلى مُرادي مع الحفاظ على أمتعتي ونقودي؟ ولذلك كانت درجة التيقظ والحرص عالية جدًا.

وللمزيد من التعب والحيرة تبين لي في منتصف الطريق أن الحافلة التي أركبها متوجهة من إربد إلى الكويت، مروراً ببغداد ثم البصرة بعدها، ولقلة الخبرة والتجربة، تبين لي فيما بعد أن هذه الحافلة لا تدخل مدينة البصرة، التي كنت أقصدها، بل تمر قريباً منها؛ لذلك طُلب إليّ النزول من الحافلة على المثلث الذي يربط طريق بغداد – الكويت الرئيسي

بمدينة البصرة.

وفعلاً نزلت مع حقيبتي التي تكبرني حجماً ووزناً، وكانت الحيرة تملؤني، واللعنات الصامتة على سائق الحافلة - الذي لم يوصلني إلى البصرة - تملأ صدري، كان الوقت قبل الغروب ولم أكن أدرك في حينها أين أنا ولا الإتجاهات الأربعة، لولا بقايا قطعة من حديد صدئة، بعض ما كتب عليها قد أكل عليه الدهر وشرب، تشير إلى مدينة البصرة.

كانت لحظات رهيبة بالنسبة لي استذكرت فيها والدتي، ودعاءها الدائم لي ولإخواني بالستر والتوفيق، وقلت في نفسي: يا الله، ولم يقطع علي شرودي وحبل أفكاري إلا وقوف سيارة خاصة بيضاء، من نوع بيجو أمامي، قال لي سائقها: أين تقصد؟، قلت: البصرة، فقال: تفضل، كدت أطير من الفرح، وأنا بين مصدق ومكذب، ساعدني الرجل على حمل الحقيبة ووضعها في السيارة، وركبت معه وانطلقنا إلى البصرة، ولكن في واقع الحال إلى جهة مجهولة عملياً بالنسبة لي، فلذلك كانت تنتابني وساوس وأوهام لا أدري مصدرها، وكانت تنقطع هذه الأفكار بين الفينة والأخرى؛ لأرد على أسئلة السائق، من أين أنت؟ وأين تقصد؟ وما اسمك؟ وكان لا يزيد على الترحيب بعد كل جواب.

من الأمور التي كانت تشغل بالي في الطريق، هل عليَّ أن أعطيه أجراً على جميل صنيعه أم لا؟، هل هو فاعل خير أم سائق أجرة؟. ورغم

أن الأميال التي قطعناها كانت قليلة إلا أنني شعرت أنها طويلة جداً، فلمّا بدأ عمران البصرة يظهر في الأفق بدأت أرتاح شيئاً فشيئاً.

لملمت ما بقي لدي من شجاعة وسألته: من أين أنت؟، فقال: من الكويت وأقصد زيارة البصرة، وكان هذا في صيف عام ١٩٦٨م.

دخلنا البصرة، وعرف أنني أريد فندقاً أسكن فيه حتى موعد الباخرة، فأرشدني إلى فندق، وحمل معي حقيبتي، وقابل المسؤول وأوصاه بي خيراً، ثم أراد الإنصراف فرجوته أن أقدم له أجر صنيعه الكريم، فابتسم، وقال سأزورك غداً إن شاء الله في الفندق، ونتفاهم، ثم غادر وتركني في حيرة جديدة، على ماذا نتفاهم؟!.

دخلت غرفتي، وتنفست الصعداء، وحمدت الله أن وصلت سالماً بحقيبتي ونقودي لم يمسسهما سوء، ودخلت في نوم عميق، لم أصح منه إلا في ساعة متأخرة لأصلي المغرب والعشاء جمع تأخير.

جاء الرجل في الصباح واطمأن علي، وتجاذبنا أطراف الحديث، عرف أنني متوجه للدراسة في باكستان عن طريق البحر مع شركة "كرياكنزي" التي تنطلق من البصرة، وتحمل مع البضائع بعض الركاب، الذين يقصدونها؛ لرخص أجورها، وكنت واحداً منهم.

كنت أستجمع شجاعتي لشدة حيائي منه للطفه ووقاره عندما كنت أريد أن أسأله، فقلت له: بالأمس أردت أن أقدم لك الأجرة على صنيعك

الجميل فأجلت ذلك إلى اليوم، فضحك، وقال: ذات يوم كنت مع زوجتي وبناتي في سيارتي على طريق بغداد – الكويت، وكان الوقت ليلاً، وقدر الله أن تعطلت السيارة وأصبحنا في ضيق شديد، وكنت أجتهد بالطلب من السيارات التي تمر أن تساعدنا فلا مجيب، وبعد انتظار طويل وحيرة أطول، إذ بسيارة خاصة صغيرة، يستقلها مجموعة من الشباب الأردنيين، تستجيب للإشارة وتقف أمامي، وبعد أن عرفوا الأمر، قاموا بإصلاح سيارتي، ثم تابعنا المسير باتجاه الكويت، وكان هؤلاء الشباب يسيرون خلفنا، زيادة في الاطمئنان علينا، حتى وصلنا الكويت، شكرتهم شكراً جزيلاً، وحاولت مكافأتهم، فرفضوا، وقالوا: هذا أقل الواجب.

ومنذ ذلك الحين قطعت على نفسي عهداً أن أقدم ما أستطيع من مساعدة لمن أعرف ولمن لا أعرف، علّي أسدد بعض جميل هؤلاء الشباب الكرام، وهذا أقل الواجب.

وما زالت كلماته جزاه الله خيراً ـ ترن في أذني إذ أردفَ القول ناصحاً: «أنت في بداية حياتك، وأنت الآن بعيدٌ عن رقابة والديك، فتذكر أن الله يراك في كل مكان، أنصحك أن تلتزم شرعه، واختر الصحبة الصالحة، والزم دراستك واجتهد ما وسعك الاجتهاد واستفد من وقتك، فالوقت هو الحياه، وعُد لوالديك بعلم نافع، والتزم بشرع الله، تكسب المزيد من رضاهم، فرضاهم من رضا الله».

كلمات من نور، ساقها الله على لسان هذا الرجل العظيم المجهول بالنسبة لي، فكانت مطابقة تماما لكلمات أقرب الناس لي، وأكثرهم حرصاً على مصلحتي وحباً لي، كم أتمنى لو عرفته أكثر لإكرامه، ولكن ما ضره أني لم أعرفه؟!، مادام علاّم الغيوب لا تخفى عليه خافية، وصدق الشاعر الحطيئة حين قال:

من يفعل الخيرَ لا يُعدم جوازيهُ لا يذهبُ العُرفُ بين اللهِ والناسِ

فجزاه الله عني خير الجزاء، وأكرمه حياً وميتاً على جميل صنيعه وحُسن خلقه، فلست أملك له غير الدعاء، والاقتداء بصنيعه، فعمل الخير مع من تعرف ومن لا تعرف، ورضا الوالدين وطاعتهما من موجبات رحمة الله وتوفيقه.

الدراسة في جامعة كراتشي

وبعد رحلة بحرية طويلة، مملوءة بالطرافة، ليلها أجملُ من نهارها (ثمانية أيام بلياليها)، رحلة طابعها التقشف والتوابل الهندية المُركّزة والطعام الهندي الحار، حيث لابديل عنه في هذا النوع من البواخر، لأن معظم من كان في السفينة عمال من شبه القارة الهندية، ورغم صعوبة الأمر إلا أنني حاولت أن أتأقلم بسرعة مع هذا الطعام، لقناعتي بأن السبعة عشر ديناراً – التي دفعتها كأجرة للسفر وبدل الطعام والشراب والمنامة – لا يمكن أن تُهيئ لي أحسن مما ذكرت.

وأخيراً وصلت مدينة كراتشي ذات الثمانية عشر مليون نسمة في حينها، حيث الازدحام الشديد والحرارة المرتفعة والرطوبة العالية، دخلتها وقت الغروب مستوحشاً ومتوجساً من أي حركة، حيث لا أعرف أحداً، ولا أعرف لغةً، ولا مكاناً، ولكن من يضع نصب عينيه هدفاً ويسعى إليه ويتوكل على الله فهو حسبه.

وبعد أيام ذهبت إلى جامعة كراتشي وقابلت أحد المسؤولين عن قبولات الطلبة الأجانب واسمه جمال، شرحت له ما أريد بلغة انجليزية مكسرة، وطلبت منه أن أحصل على مقعد في كلية الطب أو الهندسة، فأشار موافقاً، فقدمت له أوراقي، وكان الأمر متيسراً آنذاك، الا أنني فوجئت

لدرجة الصدمة، عندما طلب مني رشوة لتحقيق ذلك، فرفضت رفضاً قاطعاً، وتركته قافلاً إلى سكني، اقلّب الأمر وسط اندهاشي وحيرتي، لأن فكرتي النظرية عن هذا البلد المسلم، الذي ضحى بالملايين في سبيل حفاظه على هويته الإسلامية كانت أقرب للمثالية، وقد علمتُ لاحقاً أنه متعود على الرشوة من قبل، وخاصة –للأسف– من الطلبة العرب.

وحتى لايفوتني المزيد من الوقت دون دراسة وتحصيل، توجهت صبيحة اليوم التالي إلى الكلية العلمية الإسلامية في كراتشي، وهي من كليات الجامعة المنفصلة عنها مكاناً وإدارة، وذات سمعة جيدة من حيث الانضباط والمستوى، سجلت في قسم العلوم الجرثومية، وأنا لا أعرف لماذا، حيث لم أسمع بهذا التخصص من قبل، وحصلت و بأقصر مدة على بكالوريس بامتياز بفضل الله وتوفيقه، انتقلت بعدها إلى جامعة كراتشي – وهي الجامعة الأم بالنسبة للكليات المنفصلة – لدراسة الماجستير في علم الجراثيم الطبية.

في صيف عام ١٩٧٠م عُدت من باكستان إلى الأردن بعد البكالوريس لزيارة الأهل، وكانت مشاعري مختلطة من النقيض إلى النقيض، حزين لأن والدي توفاه الله بغيابي، وفرح لأنني مع والدتي وبين إخواني وأخواتي وأصحابي، حيث زرت سوريا برفقة إخواني، وقضينا فيها وخاصة في مدينة التل (قرب دمشق) وقتا ممتعاً، وعندما عُدنا إلى

الأردن وجدنا توتراً أمنياً شديداً حيث كان الأردن يمر بظروف لا يُحسد عليها بسبب إنتشار «بعض الفدائيين» في كل مدينة بل وقرية، والشعب الأردني البسيط ممزق نفسياً بين حبه لفلسطين ولمن جنّد نفسه لتحريرها، وبين حُبه للأردن وأمنه وإستقراره، ولأسباب داخلية وخارجية مختلفة – لا مجال لتفصيلها – وقعت فتنة بين الجيش الأردني والفدائيين، بما أُصطلح عليه ب (ايلول الأسود).

كان لا بد لي من العودة إلى باكستان لمواصلة دراستي، فخرجت مع مجموعة من الطلاب من عمان براً في خضم أحداث الأردن المأساوية، بعد تخطي العديد من حواجز التفتيش الأمنية التي كانت لا تخلو من تهديدات وإعاقات ومضايقات، وخاصة من بعض حواجز بعض الفدائيين بين عمان والزرقاء، وقد تنفسنا الصعداء عندما بدأ الباص يعبُ طريق بغداد متوجهين إلى البصرة، حيث تربض الباخرة التجارية التي ستنقلنا إلى كراتشي.

لقد مررت بهذه الطريق سابقاً كما أسلفت تحت عنوان (من الأردن إلى البصرة)، وشتان ما بين مشاعر الأمس واليوم. انطلقت بنا السفينة من البصرة مروراً بكل موانئ الخليج، لأنها سفينة تجارية لنقل البضائع وليس للركاب، وكنا نركبها لرخص أجورها ونُمضي على ظهرها ثمانية أيام طوال، جُل عمالها من الهنود، لذلك اللغة السائدة فيها هي اللغة

الأوردية، طعامها حار جداً، وماؤها مائل إلى الملوحة، ناهيك عن الحرارة المرتفعة والرطوبة الخانقة.

كانوا لا يسمحون لنا بالنزول من الباخرة في الموانئ، لذلك في آخر الرحلة نضب ما لدينا من مؤونة، واصبحنا جياعاً، وكان من بيننا شاب ممتلئ، خفيف الظل لكنه كثير الحركة، رأى تفاحة من طرف باب غرفة أحد العمال، عندما كان يمشي في أحد الممرات الضيقة في السفينة، فلفتت انتباهه لجوعه وأضمر لها شراً، فمد يده من طرف الباب والتقطها، وإذا بالعامل وراء الباب من الداخل، فالتقط يده، ودارت معركة بينهما، واحد من الداخل يريد أن يخرج والآخر من الخارج يريد تخليص يده وصيده الثمين، وأخيراً تغلب صاحبنا على الهندي وهرب بالممرات الضيقة، واختلط مع الناس ثم تسلل إلى حيث ننام وغطى رأسه ببطانيته بيننا. بعد ساعة من الزمن واذا بالقبطان فوق رؤوسنا (وهو الحاكم في سفينته)، يتفرس بنا واحداً واحداً ونحن لا ندري ما الخبر، وبعد أن إنصرف واصبح صاحبنا مطمئناً، قص علينا ما حدث، وتعشى على التفاحة السحرية أمامنا، وكنا ننظر اليه بصمت وكأنه ملك الدنيا بأسرها.

وصلنا ميناء كراتشي ليلاً، وقد اخذ منا الجوع مأخذه، فأمروا أن ترسوا الباخرة حتى الصباح لإفرغ ما فيها، ومنعونا النزول منها، ولكن بعد رجاء شديد سمحوا لنا أن ننزل دون أغراضنا، شريطة تسليمهم

جوازات سفرنا، وأن نأتي صباحاً لنخرج بالطريقة الرسمية. والمشكلة أن كل واحد منا كان يحمل مصروفه لعام كامل على الأقل من الدولارات، وهذا ممنوع بالقانون الباكستاني بسبب ما يسمى بالسوق السوداء لصرف العملة، حيث كانت قيمة الدولار فيه ضعف قيمته بالبنك.

اجتمعنا قبل أن ننزل من الباخرة وقررنا إيداع كل ما معنا مع عجوزمسلم هندي، يبدو عليه الوقار، لم نعرفه سابقاً، ولكن كنّا نصلي معه أثناء الرحلة على ظهر الباخرة. نزلنا وتعشينا في كراتشي على جوع فينا، وحمدنا الله تبارك وتعإلى، ولبراءتنا وبساطتنا لم يفكر أحد منا بالشيخ؛ ماذا لو أنكر ما أودعناه بالأمس من مال!!، وركبنا الباخرة صباحاً، وكأننا لم ننزل منها، وتوجهنا إلى الشيخ الجليل، فأحسن استقبالنا ووزع علينا الأمانات بالتمام والكمال، فشكرناه وودعناه، ولم نره مذ ذاك. ياألهي ما الذي جعل هذا الشيخ الذي لم نعرفه من قبل بهذه الأمانة، وهذا الخُلق العظيم، وفقره وعوزه ظاهران للعيان، لا شك أنها خبيئة له عند الله، الذي لايضيع عنده شيء، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في مستقر رحمته.

وعندما كنت في مرحلة الماجستير في جامعة كراتشي، خطر ببالي أن أسأل عن السيد جمال، وما أدراك من جمال؛ الموظف الذي سبق وطلب مني رشوة قبل سنوات مقابل مقعد في كلية الطب أو الهندسة، فصُدمت

مرة أخرى عندما علمت أنه كان بسيارته بصحبة زوجته وأولاده، حين صدمهم قطار سريع، فقضى عليهم جميعاً، وأصبحوا خبراً بعد عين، فقلت: «لا حول ولا قوة الا بالله»، أرجو الله أن يكون قد تاب قبل موته رحمه الله.

وهنا لابد أن اعترف بفضل الله علي، إذ سلّمني من الرشوة ابتداء، ثم دفعني دفعاً لدراسة علم الجراثيم، وأنا لا أعرف عنه شيئاً، ولم يسبق أن خطر ببالي، فوالله كأن أحداً ساقني إليه سوقاً، وتيسرت الأمور بسرعة عجيبة، وإنسجمت معه، ووجدت فيه ضالتي.

سبحانك يا ربي كم أنت رحيم بعبادك، تعلم ولا نعلم، تختار لنا الأفضل، ولكننا قومٌ مستعجلون، نعترف لك، وندعوك أن تدبر لنا دائماً، فإننا لا نحسن التخطيط والتدبير، فلك الأمر من قبل ومن بعد، ولك الحمد دائماً وأبداً.

يبقى الإنسان ضعيفاً مهما أوتي من قوة وعلم، وأحياناً أشعر بأن الله قد يبتليه في ما يظن أنه قد سيطر عليه، ليُريه ضعفه، فأنا كنت طالباً في علم الجراثيم الطبية ومتفوقاً فيه، والمفروض أنني أمتلك من المعرفة والمقدرة على تجنبها وتشخيصها، بل وقتلها أكثر من غيري، لكنني أُصبت بأحدها في أذني، ولما زرعتها وعرفتها، فإذا بها من أصعب الجراثيم وأكثرها مقاومة للعلاجات (بكتيريا عنيدة أسمها سيدوموناس)، وعندما

عرضت التقارير على برفيسورمختص بالأنف والأذن والحنجرة، وهو أستاذ في كلية الطب في كراتشي، وتشاورنا في الأمر؛ كان لا بد من إجراء عملية حساسة لتنظيف الأجزاء الدقيقة في الأذن الداخلية بصبغات مركزة قادرة على قتل هذه الجرثومة العنيدة، ثم بعدها ترقيع الطبلة في نفس الأذن اليسرى، حصل هذا صيف عام ١٩٧١م، وكانت عملية ناجحة باحد عشر غرزة خلف صيوان الأذن.

جفت الأذن، وتلاشت آلآم الصداع، وسارت الأمور على ما يرام، لكنني كنت أشعر بين الفينة والأخرى بالتهابات في اللوزتين، وبالعادة لا نلقي لذلك بالاً واهتماماً كبيراً، ولكن كثرة تكرارها جلب إنتباهي، فقمت بعمل مزرعة لمعرفة الجرثومة، ويا لمفاجأتي عندما وجدت نفس الجرثومة العنيدة التي كانت في أذني، فما كان مني إلا مراجعة نفس البرفسور – الذي كان قد انتقل إلى مدينة أخرى –، وعندما قام بالكشف السريري ورأى التقارير قرر إجراء عملية فورية لإزالة اللوزتين كلياً، للتخلص مما عشعش فيهما من هذه الجرثومة، وفعلا أزال اللوزتين في صيف عام ١٩٧٢م مع كل الإحتياطات الممكنة للتخلص من الجرثومة العنيدة، وقد نجح بذلك أيما نجاح، ولم أجد لها أثراً بعدها قط، كل هذا أشعرني بضعفي كمختص بالجراثيم الطبية، حتى أقتنعت لدرجة اليقين أن جرثومة ما ممكن أن تقتل سايسها مهما أُوتي من قوة ودراية وخبرة،

فعالِم الجراثيم الفرنسي الشهير – الذي قدم للبشرية ما تدين به له حتى يومنا هذا – لويس باستور فقد ساقه وثلاثة من أولاده بسبب جرثومة كان يُجري تجاربه عليها، فلا مجال للغرور عند العاقل، فالعالم الحقيقي كلما ازداد علما ازداد معرفة بضعفه وجهله، وصدق الشاعر حين قال:

خُلقتَ من الترابِ فصرتَ حياً وعلمتَ الفصيح َمن الخطابِ

وعُدتَ إلى الترابِ فصرتَ فيه كأنكَ ما خرجتَ من الترابِ

ومع كل ما سبق فقد حصلت على الماجستير من الجامعة بدرجة امتياز بحمد الله وفضله وتوفيقه، وفي كل سنوات دراستي في باكستان كنت أحصد كل جوائز إتحاد الطلبة الأردنيين المخصصة للمتفوقين في حينها، كما حصلت على جائزة من اتحاد الطلبة الأردنيين، بسبب بحث قُمت به عن السواك في عام ١٩٧١م، وقد كان الاحتفال في حينه تحت رعاية الحاكم السابق لباكستان الشرقية.

كما تسلمت في حينها رسالة ثناء وشكر وتشجيع من الملحق الثقافي الأردني في السفارة الأردنية في إسلام أباد – الدكتور الفاضل أحمد البشايرة – بعد زيارة قام بها للجامعة، وسمع من أساتذة قسم علم الجراثيم عن تفوقي العلمي، وسيرتي في الجامعة.

من الطبيعي أن يكون توجهي إسلامياً؛ لأنني نشأت في بيت متدين، الأخ الأكبر فيه من الرعيل الأول من قيادات جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، لهذا ورغم حداثتي في ذلك الوقت بالجماعة، إلا أنني بحثت عن أصحاب التوجه الإسلامي بين الطلاب الوافدين من مختلف الجنسيات، وتعاونّا جميعاً على إنشاء تجمع أسميناه «جماعة الفكر الإسلامي» الذي سرعان ما حولناه إلى «اتحاد الطلبة المسلمين» في كراتشي، حيث أصبح له شأن كبير فيما بعد، وله فروع في مختلف الجامعات والمدن الباكستانية.

كنتُ مغرماً بدراستي، مُكبّاً عليها، كما كان لي منهج موازٍ من الكتب، خاصة في الحديث الشريف، وكم كنت أفرح وأبتهج عندما أجد حديثاً شريفاً له علاقة بموضوع دراستي كالوقاية من الأمراض مثلاً....الخ، لهذا وضعت كُتيباً في حينها عنوانه «تفوق الطب الوقائي في الإسلام».

كما أنني كنت مواظباً على محاضراتي بشكل كامل لا أغيب عنها أبداً، ومن جميل المقادير أن أحد الأصدقاء كان يعمل في الكويت، Y تصل بي لمساعدة طالب جديد سيحضر من طرفه للدراسة في جامعة كراتشي، وكان لابد من استقباله في المطار، ولسوء الحظ أن طائرته تصل قبل الفجر بساعة تقريباً، وهذا وقت صعب، لا نوم قبله ولا نوم بعده، سيما وأن المطار بعيد نوعاً ما، خاصة على من لا يملك سيارة، لذلك كان

لابد من السهر طيلة الليلة لاستقباله، ثم الذهاب في الصباح للالتحاق بالمحاضرات.

عُدت إلى سكني مع صلاة الفجر منهكاً، وخلدتُ لشيء من الراحة، فلم أصحُ من نومي إلا متأخراً حيث انقضت المحاضرات الأولى من اليوم، فذهبت مسرعاً إلى القسم لألتحق بما تبقى من المحاضرات، استوقفني أحد الأساتذة الكرام الذي يعرفني جيداً وسألني باستغراب عن سبب غيابي غير العادي، وعندما سمع الجواب قال: اجتمعنا في إدارة القسم بالأمس وقررنا منحك جائزة في الأسبوع القادم، لأنك لم تتغيب عن محاضرة واحدة طيلة المدة السابقة، ولكنك الآن قد خسرتها.

والمضحك المحزن في الوقت نفسه أن الأخ الذي ذهبت لاستقباله في المطار لم يحضر، حيث علمت لاحقاً أنه غيّر وجهة دراسته إلى دولة أخرى، وهكذا الحياة مكاسب ومخاسر، لا تشعر بحلاوة هذه إلا بتلك.

ورغم أنني كنت على علاقة طيبة مع جميع زملائي، فلم يكن لي – بحمد الله – خصوم، إلا أن صحبتي الخاصة التي لا زلتُ أفتخروأحتفظ بكثير منها، كانت على أسس الجدية والالتزام الديني والاهتمام بالدراسة.

رغم صعوبة الحياة في باكستان في بداية السبعينات من القرن الماضي، إلا أن تعلقنا بالهدف والتحصيل الدراسي؛ سهلا علينا كل صعب بفضل الله، ومما هون علينا أكثر وجود مبعوثين من سلاح الجو

الأردني، بعضهم فنيين، وبعضهم لدراسة الطيران على أيدي المهرة من الطيارين الباكستانيين، في كليات واكاديميات الطيران الحربي الباكستاني، ولحسن الحظ أن كلية الطيران كانت في كراتشي، في قاعدة أسمها منصور (على أسم أحد طياريها الذي استشهد بسبب ارتطام طائرته بنسر في الجو كما ذُكر لي في حينها)، وكنت ازورهم ويزورونني بالجامعة، ولي معهم ذكريات لا تُنسى، فهم من خيرة الناس، حيث أحسنوا تمثيل الأردن في غُربتهم، ولطالما سمعت عنهم وعن اخلاقهم ومهاراتهم من مدربيهم، وحبا وثناء على الأردن من خلالهم، لم يتأخر منهم أحد دراسياً، عادوا للاردن مرفوعي الرأس، وخدموا في سلاحهم، فمنهم من استشهد، ومنهم من ترقى حتى وصل أعلى الرتب والمراتب.

وفي صيف عام ١٩٧٣م (كما سيأتي لاحقاً) كنت ضابطاً بالخدمات الطبية الملكية في عمان، وكنت اسكن بالمهجع الخاص بالضباط، وفي احدى الليالي جاء المناوب مكسور الخاطر، فسألته ممازحاً: هون عليك، ما لي أراك حزينا ؟ فقال وصلتنا الآن جثة أحد شهدائنا من الطيارين، ووضعناها بالثلاجة إلى الصباح ولم يذكر أسمه، فترحمنا عليه، وفي الصباح ذهب كل منا إلى عمله، وبحدود العاشرة واذا بساحة المستشفى تمتلئ بسيارات سلاح الجو، واذا بالجنازة توضع بسيارة عسكرية، وتتحرك السيارات جميعاً في موكب جنائزي مهيب وحزين، والمُحزن

أكثر لي شخصياً عندما علمت أنه كان أحد هولاء الطيارين الأبطال سالفي الذكر الذين تدربوا في باكستان.

الجار الكفيف

في فترة دراستي للماجستير الأولى كنت أسكن مع آخرين في سكن الطلاب في حرم جامعة كراتشي، ولكوني جبلي النشأة من جبال عجلون، كنت أهوى السكن في الطوابق العُليا، حيث الإطلالة المشرفة التي تعطي البصر حقه، رغم صعوبة الصعود والهبوط لعدم توفر المصاعد، وقد ظهر ذلك جلياً في الحرب الباكستانية الهندية في بداية السبعينات، حيث كنّا نضطر للصعود والهبوط مراراً وتكراراً في الليلة الواحدة للاختباء في الملجأ القريب أثناء الغارات الجوية على كراتشي.

ومن جميل التقادير أنه كان لي جار من كشمير كفيف البصر اسمه «محمد نور»، وكان يدرس الماجستير في الآداب، كنت على علاقة طيبة وكريمة معه، وكان يُظهر لي قدراً كبيراً من الاحترام، ربما بسبب تعاطفي معه، ثم التوافق في كثير من الآراء والطروحات خاصة الدينية منها، لذلك كان يخصُني باسم «حضرة»، ويبدو أن هذه الكلمة لا تُصرف عندهم إلا لمن يُريدون تكريمه واحترامه.

هذا الشاب «محمد نور» كان ذكياً لمّاحاً وحساساً، يفهم الأمور (على الطاير) كما يقولون، كان يتحرك بمساعدة الآخرين، أو وحيداً باستعمال العصا كما هو معتاد، وعند انشغالنا في أشهر الامتحانات كان

لا يجد من يقرأ لـه، إذ إن هذه القراءة الجهرية هي الطريقة الرئيسة التي كان يعتمدها للمذاكرة والحفظ، بجانب سماعه لمحاضرة الدكتور أثناء الدوام.

وذات مرة تطوعت إحدى الطالبات للقراءة لـه، وكانت تسكن في السكن المعد خصيصاً للبنات وهو أيضا في حرم الجامعة، يبعد عن سكن الذكور حوإلي ٢كم، كان لابد (لمحمد نور) أن يذهب لها يومياً لمدة ساعة على الأقل، فعرف الطريق، وكنتُ أراه يسير فيها بسرعة أكثر من المبصرين، وأحيانا كنتُ أراه يختصر المسافة بسلوك ممرات غير رسمية لكنها مطروقة من المبصرين، رغم ما فيها من أشواك، واستمر الأمر هكذا حوالي الشهرين.

وذات يوم عاد إلى سكنه مهشم الوجه، راعف الأنف، باكياً، فقدمنا لـه ما نستطيع من المساعدة والإسعافات الأولية، وحاولنا جاهدين أن نعرف السبب فلم يُبح بشيء، لكنه همس في أذني "سأخبرك لاحقاً"، وبعد أن إنفض السامر خلصت إليه، فقال لي: قد وقعت في حب البنت، التي تقرأ لي، وأصبحت لا أطيق فراقها، وقد أخذت عليَّ كل تفكيري، وانطبق عليه قول الشاعر المتيم:

أروحُ بقلبٍ بالصبابة هائمٍ وأغدو بطرفٍ بالكآبة هامي

فتساءلتُ عن علاقة ذلك بما حصل لـه، فقال: كنت عائداً من درسها إلى غرفتي في الطريق المعتاد، وكنت أفكر بها طوال الوقت، فضللت الطريق وارتطمت بعمود الهاتف، فكان الذي ترى، فواسيته وتعاطفت معه وقلت في نفسي: يا إلهي، كان يمشي سابقاً على نور بصيرته دون بصره، فكان الأمر سوياً، ولما انشغل قلبه وتفكيره تعطلت بصيرته، فأصبح رهين ظلمتين، عمى البصر وانشغال البصيرة، فتاهت به السبل، فحصل ما حصل.

والأمر الآخر، كان وداعي لـه عند تخرجي وسفري للأردن في عام ١٩٧٣م حاراً وأخوياً وخاصاً ودامعاً، ثم أنهى دراسته بعدي مباشرة، وسافر إلى بلده كشمير، واشتغل هو هناك، واشتغلت أنا في الأردن في الخدمات الطبية الملكية، ولم يكن أحدنا يدري ماذا حصل مع الآخر، لأنه لم يكن بيننا أي اتصال.

وقدر الله أن أعود مبعوثاً على نفقة الباكستان بعد سنوات للدراسة فيها مرة أخرى لشهادة الماجستير في فلسفة العلوم الطبية (M.Phil)، وفي أحد الأيام، رأيت في حرم الجامعة رجلاً أشبه ما يكون بصاحبنا "محمد نور"، فقلت في نفسي ليس هو، لعلمي أنه في كشمير ولن يعود إلى هنا، فابتعدت وأنا أفكر به، ولم ألبث أن قررت العودة إليه، وكان يقف مع جماعة من الطلاب الذين لا أعرفهم، وعندما وصلت قريباً جداً منه،

وقفت حائراً لدقائق، ثم قررت أن أناديه، فإن كان هو رد، وتأكدت منه، وإن كان غير ذلك أذهب في سبيلي، وناديت لمرة واحدة "محمد نور"، وإذا به ينتفض ويتوجه إليّ قائلا: أووووه (الله أكبر) حضرة، حضرة عبد الحميد، وكان عناقاً أخوياً حاراً بعد طول غياب.

فقلت في نفسي يا إلهي، أنا المبصر احترت وترددت، ولم أعرفه، وهو الكفيف الفاقد لحبيبتيه، يعرفني بمجرد سماع صوتي لمرة واحدة بعد سنين من الفراق، وصدق الله العظيم حين قال:﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (٤٦ الحج)، عوضه الله بصيرة نافذة،... فاقت بصري وبصيرتي، سبحانك ربي ما أعدلك.

وبعيداً عن ما سبق من مشاعر مختلطة بخصوص جاري العزيز ومغامرته الغرامية وما نتج عنها، فإنني أذكر أننا كنا نمشي ذات مساء في حرم الجامعة، فمررنا بجانب الملعب الرئيسي، وإذا بأعداد كبيرة من الطلاب يُمارسون رياضات مختلفة، كل مجموعة في منطقتها تُجري تصفيات نهائية لتحديد الفائز الذي سيكّرمه رئيس الجامعة في الحفل السنوي المعتاد، ومن جميل المقادير أننا دخلنا الملعب من زاوية الذين يُمارسون رياضة رمي الرمح، فظنوا أننا مشاركون فيها، ومن لطف وأدب الباكستانين بشكل عام أنهم يحترمون العرب، ولذلك ومن غير تردد قدموني لأرمي، فرميت، (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)،

وعندما انتهينا جميعاً وقورنت المسافات التي أحرزها كل رامٍ، وإذا بالمفاجأة التي لم تخطر إطلاقاً ببالي، لأنني لم أمارس في حياتي مثل هذا النوع من الرياضة، إلاّ رمي الحجارة في جبال عجلون، وإذا بيّ أحرز الرقم الأول في التصفيات، لأفوز بجائزة رمي الرمح في الحفل الختامي الرئيسي، وأتسلم الكأس من رئيس الجامعة، الأستاذ الدكتور محمود حسين رحمه الله رحمة واسعة.

عودة إلى الأردن

بعد حصولي على الماجستير الأولى، عُدت إلى الأردن في ٣/ ٣/ ١٩٧٣م، وكان الأردن يومها مغطى بالثلوج، وهذا يعني لي الكثير في ذلك الوقت، حيث لم تكن المواصلات ميسرة كما هي الآن، وحيث أنني كنت أسكن في (عين جنا) بجانب مدينة عجلون، المشهورة بأمطارها، وكثرة إغلاق طرقها، بسبب تراكم الثلوج في ذلك الوقت، وهذا يعني أنني لن أجد أحداً من أهلي في استقبالي في المطار كما هي العادة في بلادنا، وفعلاً كان ذلك، إلا من ابن عم لي، كان يعمل في عمان، وجدته وحمدتُ الله على ذلك.

كانت الطائرة قد حطت في (أبو ظبي) في طريقها من كراتشي إلى عمان، وركب بجانبي في هذه المحطة رجل إنكليزي، تجاذبتُ معه أطراف الحديث، فعرفتُ أنه من مدينة مانشستر، يعملُ مشرفاً تربوياً في قطاع التربية والتعليم في الامارات العربية، وما أن شعر بشيء من الأُنس معي حتى بدأ يُكلمني عن أبنائه وبناته وزوجته، ثم أخرج ألبوماً من الصور وعرّفني عليهم، وبعد أن انتهى سألني عن عائلتي فقلت: نحن خمسة أخوة ذكور وخمس أخوات، ثم سألني عن ترتيبي بين إخواني، فقلت: أنا أصغرهم سناً، فتبسم ضاحكاً وقال كلمة ما زالت في ذاكرتي: "ستبقى

طوال حياتك أصغرهم سناً"، لن تلحق بهم، ولن تسبقهم، سيبقون أكبر منك.

يا إلهي ما أبسط هذه الكلمات ولكن ما أعمقها، رغم أنها تبدو للوهلة الأولى ساذجة، نعم صاحب السابقة لا يُدرك، ولا يمكن اللحاق به، فللعطاء فضله، وللسبق فضله، وللزمن فضله، وللسن فضله.

الروّاد في أي بلد أو أسرة هم الأساس، ولا بُنيان بلا أساس، الرواد هم الأصل، وكيف يكون الفرع فرعاً بلا أصل؟، فمن كان أكبر منك بيوم كان أعلم منك بدهر من الخبرة، والتجربة، والتضحية، والعطاء، وهل هناك من يُسخر خبرته وحكمته ومقدرته طوعاً، وعن طيب خاطر، لمخلوق أكثر من الوالدين لأبنائهم؟، وأكثر من الكبار لصغارهم؟، على مستوى العائلة أو الوطن، نعم فليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويعترف له بالفضل، والسبق والتضحية، وليس منا من يتنكر لجميله، فمهما قدمنا للكبار فسيبقون في المقدمة، ولن نستطيع اللحاق بهم.

وبعد البحث عن عمل في الأردن لعدة أشهر، انتظمت في سلك القوات المسلحة، ضابطاً للتحاليل الطبية، في الخدمات الطبية الملكية، على وعد بالابتعاث للدكتوراة خلال فترة وجيزة.

خلال هذه المدة استفدتُ كثيراً من الناحية العملية، وخبرات ما زلتُ أعتزُ بها حتى هذا الوقت، ومن الأمور التي لا أنساها عندما كنت

ضابطاً جديداً بداية عام ١٩٧٤ في المستشفى الرئيسي في عمان، لا أعرف من العسكرية وقوانينها شيئاً، فوجئت بإبلاغي أنني الضابط المناوب «ضابط غفر» في عطلة نهاية الأسبوع، وهذا يعني أنني المسؤول الأول في المستشفى بغياب القائد والإدارة، ومن جميل المقادير أنه في صبيحة تلك الجمعة إذ بالمرحوم الملك حسين يقود سيارته بنفسه ودون حرس أو سابق علم، يدخل بوابة المستشفى وبرفقته نجلاه الأمير عبدالله والأمير فيصل وهما ربما دون العاشرة في حينها، طلبتُ مدير المستشفى على عجل واستقبلتُ الضيوف في مكتب قائد المستشفى، وأنا مسكون بجملة من المشاعر الخاصة والمختلطة، تبعها بعض الحركات المرتبكة التي لاتمتُ للعسكرية بصلة، كنت أتصرف وكأنني أتعامل مع رئيس الجامعة في حرمها، وليس مع قائد أعلى للقوات المسلحة، وربما الذي أنقذني هو تواضعهُ الجمّ ولطفهُ الآسر، ثم السرعة الفائقة التي حضر فيها قائد المستشفى، - جزاه الله خيراً- حيث تولى الأمر وأحسن الاستقبال والوداع.

وقد كنا مجموعة من الضباط الجدد نخدم في المستشفى الرئيسي في عمان، مباشرة قبل إفتتاح المدينة الطبية، ومن شدة إنسجامنا مع بعض، تلاشت الرسميات من بيننا كلياً، وكان من بيننا طبيب أسنان، وقدر الله أن مرض في أحد الأيام، وأُدخل المستشفى في عنبر الضباط، وكنا نزوره

يوميا مرة أو مرتين، وكانت الممرضات يتناوبن على خدمته لشدة لطفه وأدبه، وكان من بينهن ممرضة محترمة جداً، متميزة فلا ينقصها أدب ولا إخلاص، وخطر ببالنا يوماً أن نقدم له هدية مريض (طلهُ)، فاقترح أحدنا أن نعمل به مقلباً، فأحضر كرتونة مملوءة ببقايا ما يرميه بائع الخضراوات من رؤوس القرنبيط والخس والزهراء، ثم وضع الكرتونة داخل كرتونة أخرى أحدث، ووضع الجميع بثالثة أجمل، وأحكم إغلاقها.

حملنا الهدية ودخلنا عليه جميعاً، ووضعنا الكرتونة تحت سريره، والدكتور المريض يقول لنا: يا جماعه مغلبين حالكم، هذا الأمر ليس بيننا، ونحن سكوت، جلسنا قليلاً ثم انصرفنا، ونحن نضحك، وكل منا يتساءل، ماذا ستكون ردة فعله غدا؟. وجاء الغد وبعد الغد، وخرج من المستشفى ولم يُعاتب أحداً منا، حتى احترنا بأمره، فتوافقنا على مفاتحته، جلسنا في غرفة أحدنا وسألناه: كيف كانت الهدية يا دكتور؟، فقال جزاكم الله خيراً، وزعت كل الهدايا على الممرضات، وكانت هديتكم المميزة من نصيب الممرضة المخلصة المتميزة فلانه، لأنها أجادت وأحسنت خدمتي،.... ويا لصدمتنا بل خيبتنا على هذا المقلب الذي تطور وأصبح محرجاً للجميع!!، وبالكاد لملمنا الموضوع ورفعنا الحرج عن زميلنا عند الممرضة،.... وكان من اللازم أن نحسبها بشكل صحيح، ولو كانت بين الأحباب.

ومن أهم الفوائد في هاتين السنتين علاوة على الخبرة الفنية والعلمية التي اكتسبتها هي دورة الضباط الجامعيين الرابعة -ومدتها أربعة أشهر، تُعقد دورياً في الكلية العسكرية، لكل ضابط جامعي يدخل الخدمة العسكرية - وقد استفدتُ الكثير منها ومن الإخوة المدربين - رغم شدتهم وقساوتهم علينا - خصوصاً فيما يتعلق بالاتصالات اللاسلكية، والرماية، والإدارة العسكرية والرياضة وتحمل الجوع والتعب، والأهم بنظري الجدية والانضباط وحُسن استغلال الوقت، فجزاهم الله خير الجزاء.

وبناءً على ما سبق فإنني من المؤيدين جداً لخدمة العَلم لأن لها مردوداً حقيقياً على شبابنا خاصة وعلى البلاد عامة، وما زلتُ أحنُ لتلك الأيام رغم صعوبتها.

ورغم قصر مدة الدورة في الكلية العسكرية، إلا أنها تكتنز ذكريات طريفة، فجميعنا قد تخرج حديثا من الجامعات المختلفة، حيث الحياة المدنية بكل معانيها وحريتها بل ودلالها، انتقلنا بين عشية وضحاها إلى حياة عسكرية قاسية منضبطة بكل معنى الكلمة، وفي اقسى الظروف الجوية برودة، في شتاء شبه صحراء «حمرا حمد»، ولولا ساعات النوم لقلت اننا في حركة مستمرة طوال الوقت، فمن الطابور الصباحي الرياضي إلى الركض والمشي السريع إلى الإفطار المبرمج بوقته القصير، إلى

البرنامج اليومي المرهق في الميدان، ومع هذا كله طعام الغداء أو العشاء قليل وساخن جداً بوقت قصير، ولا يوجد غيره، فإن لم نتعوده نمنا على الطوى.

وعندما كنا طلاباً بالكلية كنّا في أقل رتبة عسكرية، ولذلك كل الجنود يأمروننا، وما علينا إلا السمع والطاعة، وإلا فالركض أو الزحف ينتظرنا في أي ساعة من النهار، وقد إستلم كل واحد منا حذاء طويل الساق(بسطار)، يُحكمه رباط طوله أكثر من متر، يجب أن يمر من فتحات خاصة على الجانبين، حتى تستطيع السير به، وكل فردة منه تحتاج إلى عدة دقائق على الخبير، فكيف تتصور منظرنا حينما نسمع الصفارة لطابور فوري مفاجئ؟!، فهذا ربط واحدة والفردة الأخرى تجر لسانها الطويل ورباطها على الأرض، وصاحبها يركض تارة وينحني ليربط اخرى خوفاً من الزحف والعقاب، مناظر مضحكة جداً، علما أن الضحك من عظائم الأمور.

لقد برمجتنا الحياة اليومية بطريقة عجيبة، فبسبب خوفنا من العقاب أصبحنا نتصرف تلقائياً بل لا شعورياً، لدرجة أن أحد الأخوة الشيوخ الذين تدربوا معنا، كان واقفا بشكل عادي وهو يؤذن لصلاة العصر، ونحن ننتظر، فصاح به شيخ آخر معنا (خفيف الظل) من خلفه قائلاً: تهيىء يا عسكري، فما كان من المؤذن لاشعورياً إلا أن إشتد واستقام

وتهيىء بطريقة عسكرية، وكأن الكهرباء قد لسعته!!.

لقد علمتنا هذه الدورة الجادة أن الله قد أودع في اجسامنا طاقات عجيبة، ربما لا نستعمل نصفها، كالمقدرة على الصبر والتحمل والرياضة، وثبت لنا منها أن الكسل لا يجر إلا كسلاً وخمولاً، فقد ركبنا يوماً بعد الظهر بالسيارات ولا ندري اين نتجه، حتى إذا وصلنا مكانا بعيداً (قُدّر بسبعة كيلومترات)، نزلنا من السيارات واجتمع بنا المدرّب وقال: معكم من الآن نصف ساعة لنراكم بالمعسكر، ومن يتأخر سيُعاقب، فنظرنا بوجوه بعضنا، ظناً منا أنه يُداعبنا!!، ثم ما لبث أن أطلق صفارته المشؤمة لنا، وأشار إلى السيارات أن تنطلق عائدة إلى المعسكر، فلما وجدنا أنفسنا تحت الأمر الواقع؛ انطلقنا ونحن بين مصدق ومكذب أن نصل المعسكر أحياء، فوصلنا سالمين غانمين، مقتنعين أننا نكتنز طاقات كبيرة لم نعهدها عندنا بسبب الترهل والتربية الناعمة.

وفي نهاية السنة الثانية من الخدمة العسكرية حاولت – بناءً على وعد شفوي سابق من مدير الخدمات الطبية في حينها – أن أحصل على بعثة للدكتوراه، فلم أستطع، لذلك قدمتُ استقالتي، ورغم صعوبة الأمر في ذلك الوقت، إلاّ أن المرحوم اللواء غازي عربيات – الذي كان يعملُ مساعداً لرئيس هيئة الأركان للقوى البشرية – قد ساعدني في ذلك، وما زلتُ أذكرُ كلماته الطيبة عندما طلبني لمقابلته في القيادة العامة، وبعد أن

قرأ سجلّي العلمي وتقارير العمل السنوية الممتازة قال - رحمه الله رحمة واسعة - وهو يُوقع الموافقة: «لن أقف في طريق من يريدُ الدراسات العُليا، ولديه مثل هذا السجل العلمي الممتاز».

الدراسة في باكستان من جديد!!

بعد الاستقالة من الخدمات الطبية الملكية بدأت أبحث عن وجهة لدراسة الدكتوراه، وقدّر الله أن جمعني بالمرحوم اللواء محمد أحمد سليم البطاينة، وكان حينها رئيساً لبلدية إربد، وعرف أنني أنوي الدراسة ولكنني أبحث عن بعثة، فكلّم المرحوم ذوقان الهنداوي حيث كان وزيراً للتربية والتعليم في حينها، وأطلعه على سجلّي العلمي فأدرج اسمي مبعوثاً على نفقة الحكومة الباكستانية، ببعثة مقدارها أربعمئة روبية باكستانية شهرياً (تُعادل حوإلي خمسة وعشرين ديناراً أردنياً في حينها)، ورغم أنها لاتُسمن ولاتُغني من جوع إلاّ أنني سافرت إلى باكستان مرة أخرى، وعُدت إلى كراتشي بعد غياب، حيث أعرف كل شيء إلاّ الطلاب، لأن جيلي السابق قد تخرّج، وجاءت أجيال جديدة من الطلبة.

ودرست في مستشفى (جناح) للتخصصات الطبية العليا -وهو مستشفى تعليمي تابع لجامعة كراتشي - لدرجة ماجستير في فلسفة العلوم الطبية (M.Phil)، وهي شهادة أقلُ من الدكتوراه بقليل، وقد حصلت أمور كثيرة في هذه السنوات العجاف، حيث شهدت الباكستان في حينها تقلبات سياسية كبيرة مع عدم إستقرار، وإضرابات ومنع تجول أحياناً، أما على الصعيد الشخصي فلا بد من ذكر الأمور التالية:

عندما عُدت إلى كراتشي، أعدتُ تفعيل عضويتي في اتحاد الطلبة المسلمين، وكان اتحاداً ناشطاً على مستوى الطلاب، كان عندنا مقر بسيط، نلتقي فيه في الأعياد والمحاضرات، وكان بيننا أخ مشهور بالكرم ومساعدة الآخرين خاصة الطلبة الجدد، وكان لا يلتفتُ كثيرا إلى دراسته، ودائم الذكر للزواج ومخططاته المستقبلية لذلك، مما جعلني أنظمُ فيه قصيدة على وزن سأحمل روحي على راحتي، أذكر منها بعض الأبيات على لسان حاله يقول:

سأحملُ كُتبي على راحتي وأجري بها بين الغرف

فإمّا زواجاً يسرُ الصديقَ وإمّا خلاصاً لهذا القرف

ومن الأمور المؤسفة جداً أن حصل تماس وشجار عنيف بين أحد أعضاء الاتحاد في فرعنا في مدينة (حيدرآباد)، وبين آخرين من الطلبة المعادين للتوجه الديني، وعندما علمنا بالظلم الذي وقع على أخينا، قررنا نُصرته رغم بُعدنا عنه حوإلى تسعين كيلومتراً، ورتبنا الأمر بحيث نصل إليه بعد منتصف الليل ونُعاقبُ كل طالب معتدٍ في غرفته، وقد نمتُ قليلا في المسجد الذي حددناه للتجمع قبل الانطلاق، نمتُ وأنا مهموم، داعياً الله أن تكون العواقب سليمة، فرأيتُ في ما يرى النائم " أنني أجاهدُ مع رسول الله ﷺ، وعندما بدأت المعركة، كانت وظيفتي حارساً حول الرسول ﷺ، وعندما إشتد الوطيس وإقترب الأعداء من

الرسول ﷺ فما كان منه إلاّ أن استعمل عصا برأسها مسمار(نُسميه منساساَ) يغرسه في الفرس التي تقترب منه، فتهوي صريعة ومن عليها، فعملتُ تماماً مثل ما عمل، ولكن فارس إحدى الخيول هوى على رأسي بسيفه ليقتلني، فأفقت مذعوراً، وبعد أن استرجعتُ ما رأيتُ، حمدتُ الله على الأقل أننا على خطى الحبيب ﷺ.

قصصتُ ما رأيتُ على إخواني، وتواصينا أن لانقوم بأي عمل يُغضب الله تبارك وتعالى، ولا نلتفتُ إلا لمن ظلم أخانا ثم انطلقنا، وعندما وصلنا مساكن الطلبة اختلطت علينا الغُرف، فالكلُ نيام، فتوجهنا صوب المسجد لننام فيه وأجّلنا الأمر للغد، وفي الليلة الثانية نال كل من اعتدى على أخينا جزاءه، فتدخلت الشرطةُ واعتقلت كل من وجدته أمامها، ولم أكن معهم ومعي أخ من السعودية وآخر من سوريا، نقلوا إخواننا إلى سجن سيئ في منطقة لاهبة الحرارة (سجن صكّر)، حيث اُستقبلوا أسوأ استقبال، ولكنّ هذه المعاملة السيئة سرعان ما تحولت وتغيّرت للأحسن، عندما رأى مدير السجن أدب الشباب وصلاة الجماعة وحلقات الذكر وتلاوة القرآن الكريم، حيث تغيرت فكرتُه عنهم تماماً.

وسرعان ما صدر قرار من إسلام آباد من وزارة التعليم العالي زمن (ذو الفقار علي بوتو) بفصل كل هؤلاء الطلبة وتسفيرهم إلى بلادهم،

فما كان منا نحن، الذين لم نكن في السجن إلاّ أن هدانا الله لإرسال برقية مستعجلة للقصر الجمهوري في إسلام آباد، نُطالب فيه بالإفراج الفوري عن إخواننا، ولأنهم من جنسيات مختلفة، كتبنا في ذيل البرقية، نسخة للقصر الجمهوري في مصر، ونسخة للقصر الملكي في السعودية، وأخرى للأردن، إلى سبع دول عربية، كتبنا ذلك كتابة أمّا فعليا لم نرسل أي نسخة، وحصلت المفاجأة - بفضل الله - وأُفرج عنهم فوراً فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، وعادوا إلى جامعاتهم بهمة ونشاط، وتيسرت أمورهم الدراسية، وكان معظمهم من المبدعين، كلما مرت هذه الحادثة بذهني أتذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران ١٧٤).

ولو استدار الزمانُ واستقبلنا من أمرنا ما استدبرنا، لحللنا المشكلة بطريقة حوارية دعوية مختلفة تماماً، بعيداً عن العُنف والمواجهات الدامية، التي لا تؤلف بين القلوب، بل تزيد في تنافرها، وتؤدي إلى خسارات مادية ومعنوية، ومزيد من البُعد والجفاء الذي لا يُفيد أحداً، لكنها حماسة الشباب في ذلك الوقت.

ومن الذكريات الجميلة، أنني كنت - بجانب دراستي - أعمل في

مجال مكاتب تشغيل العمال، وتصديرهم للبلاد العربية، فمن مردود هذا العمل والبعثة البسيطة ودعم أشقائي، استطعت توفير ما يكفي لشراء سيارة فولكس فاجن موديل ١٩٦٦م، وقد كانت عجيبة غريبة الأطوار لكنها محبوبة لا غنى عنها، وكنت أوقفها للمبيت في رأس شارع منحدر، وذلك لأنها لا تعملُ في الصباح إلاّ بشق الأنفس، وذلك لكي أستفيدُ من انحدار الشارع، وأعفي نفسي من الفزعة والعونة الصباحية، لدفع السيارة حتى يعمل محركها، علماً أنها كانت عجيبة الأطوار، حساسة جداً، فإذا استعملتُ المسّاحات توقف الراديو، وإذا استعملتُ الضوء ضعف الزامور، وهكذا، المهم أنها كانت ممتعة على كثرة مشاكلها تلك، وكانت تفي بالغرض في زحمة المواصلات وشدة الحر.

عندما انتهت السنة الأولى عُدت إلى الأردن بغرض الزواج، ومضت العطلة الصيفية ولم أعثر على بنت الحلال، فعُدت أدراجي مكسور الخاطر، صفر اليدين، خالي الوفاض، حيث تبخرت كلُ أحلامي الآنية، لأن هذا يعني تأجيل الزواج سنة كاملة، هذه السنة طويلة جداً، حيث تُساوي في نظري الثلاثين عاماً التي انقضت من عمري، هذا ما كان يسيطر على عقلي في حينه، ولم يُخفف عني إلاّ ما وجدتُه عند وصولي مطار كراتشي، حيثُ وجدتُ أعضاء الاتحاد وآخرين يستقبلونني، ظنا منهم أنني تزوجتُ ومعي العروس، فلذلك رتبوا وخططوا للاحتفال

بالعروسين، فلما رأوا الكآبة في وجهي وعرفوا الحقيقة، ما كان منهم إلاّ أن أركبوني بسيارة تحفها الدراجات النارية من جميع الجوانب، بأضواء توحي بموكبية مهمة، من المطار حتى وصلنا السكن، حيث أنسوني بحسن صنيعهم ما كنت فيه من همّ وغمّ.

وفي نهاية العام الثاني قدر الله لي أن أتزوج في ١٤/ ٨/ ١٩٧٧م، وأثناء سفرنا إلى كراتشي حدثت زوجتي عن ما وجدته في العام الفائت من استقبال حافل بالمطار، وقلت لها إننا سنجد أحسن منه – إن شاء الله –، ويا لهول المفاجأة، وصلنا فلم أجد إلاّ شخصاَ واحداً ينتظرني، ظناً منهم أنني لم أتزوج كما حصل سابقاً، لقد كان أول مطبّ أمام بنت الحلال.

كان سكننا المكون من غرفة و(برندا) قرب محطة للقطار، حيث كانت العادة أنه إذا أقبل القطار أطلق صفارة تسمعها عن بعد كيلومترات، وكذلك إذا أدبر، وهكذا أمضينا عاماً كاملاً بين مستقبل ومودع للقطار، حتى أصبحنا لا ننام إلا على ذلك اللحن الجميل.

وكان لصبر زوجتي ومساعدتها الأثر الأكبر في تهوين الصعاب، وتسهيل المهمة الدراسية، وتحصيل هذا السجلّ العلمي الطيب، فجزاها الله خير الجزاء.

كانت دراستي الأولى والثانية في باكستان طابعها الجدّية والالتزام، والتركيز على الدراسة، والإنتاج العلمي، ساعد على ذلك حُسن

الصحبة، والزوجة المتعاونة، والتربية الإسلامية في الصغر، مما أتاح لي الحصول على معلومات جيدة، وسجلّ دراسي حافل، وجوائز عديدة، وعدد أكبر من الأصدقاء الطلاب، كما فُزتُ باحترام الأساتذة وتقديرهم في الجامعة والمستشفى، والحمد لله رب العالمين، وقد حصلت على الشهادة (M.Phil) بامتياز، وبمعدل لم يسبق أن حصل عليه طالب في ذلك المعهد، والفضل لله أولاً وأخيراً.

لا تُصدق كل الذي تسمع

كان من بين العلماء الجادّين الذين درّسوني في جامعة كراتشي في مرحلة الماجستير الأولى (١٩٧٢م)، رجل نحسبه صالحاً، ولا نزكيه على الله، والله حسيبه، نال درجة الأستاذية (بروفسور) في تخصصه، يظهر عليه وقار العلماء، وحكمة الكبار، ورزانة الشيوخ، إذا رأيته ماشياً تحسبُه شارد الذهن لكنّه يُسبح بصمت، قليل الكلام، وكان له من اسمه نصيب، اسمه (بروفسور مصباح)، أعطاه الله هيبة ونوراً يمشي به بين الناس، وكان الطلاب يهابونه لتدينه وجديته، وأطلقوا عليه وخاصة العرب منهم لقب الصوفي، مع لحنٍ فيه شيء من الاستهزاء والاستخفاف.

كثير من الطلبة العرب لم يُحسنوا التعامل مع الباكستانيين حتى وهم في بلادهم، كانوا يُعاملونهم بكثير من الاستخفاف والفوقية، بينما هم ينظروون إلينا - طبعاً في السابق - وكأننا من بقايا الصحابة، فيعاملوننا بكل الود والتقدير والاحترام، كما أن البسطاء منهم كانوا يظنون أن كل عربي لديه بئر من النفط في قصره.

ولكن هذه المعاملة تغيرت من سوء ما رأوا من بعض الطلاب العرب، حيث رأوا من يمشي في الشارع العام في رابعة النهار وفي رمضان وسيجارته بيده ويتأبط صديقته، دون خوف من الله أو مراعاة لمشاعر المسلمين.

ولهذا تغيرت النظرة والمعاملة للأسوأ، إلاّ مع من ثبت أنه متدين حقاً، فله عندهم صدر المجلس وكل الاحترام والتقدير.

هذه الأرضية كان لابد منها لفهم اللاحق من قصة المظلوم، ففي أحسن المواقع التجارية، وسط مدينة كراتشي تقوم بناية شاهقة، فيها عيادات طبية خاصة ومكاتب لمهندسين وشركات مختلفة، وكان أحد طوابقها المتوسطة داراً للسينما واسمها (سينما اسكالا) لها صيت خاص، بأنها فقط للعائلات الراقية، ولا تعرض إلاّ أفلاماً هادفة، كما يحلو للبعض أن يسميها، وهكذا، والبناية تشترك بمدخل واحد واسع، يجمع كل مصاعدها ويُفضي إلى الشارع الرئيسي.

وفي أحد الأيام رأى أحد الطلبة العرب (البروفسور مصباح) يخرج من هذا الباب، والمعروف عند الطلبة العرب بأنه باب سينما (اسكالا)، وجاء إلى الكلية في الصباح يقول للطلاب: رأيت بالأمس البروفسور الصوفي يخرج من سينما (اسكالا)، ويقسم على ذلك، وسرى هذا الخبر وانتشر بين الطلاب العرب انتشار النار في الهشيم، فمنهم من قال هذا من الذين يتسترون بالدين ويستعملونه لأغراضهم الشخصية، وآخر يكره كل ملتح متدين أصلاً، فلا يحتاج إلى إثبات ودليل، والغالبية العُظمى كالعادة من المتسرعين الذين يتلقفون الخبر ولا يُمحصونه وينقلونه مع بعض التصرف، وبالتالي تصبح الحبة قبة كما يقولون.

هكذا أصبحت صورة هذا العالم الجليل مشوهة بأذهان الكثيرين من الطلبة العرب، وتدور الأيام ويُقدر الله أن ألتقي بعد طول غياب بأحد أصدقائي من المهندسين الباكستانين القدامى في وسط مدينة كراتشي، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث، دعاني لمرافقته لزيارة مكتب زوج شقيقته القريب، وفعلاً رافقته وإذا مكتبه في الطابق السادس من بناية سينما (اسكالا) وكانت المفاجأة إذ وجدت (البروفسور مصباح) في المكتب نفسه، حيث تبين لي فيما بعد أن صاحب المكتب هو ابن البروفسور.

إذاً سابقاً لم يكن البروفسور يحضر فلماً في السينما، عندما رأه ذلك الطالب المتعجل، إنما كان خارجاً من مكتب ولده.

يا إلهي، كم من الأمور تُفسر أو تُفهم او تُؤول خطأً، بل كم من الحقائق تُزور، فيُظلم الكثيرون بقصد أو دون قصد، وكم نتسرع عندما نتلقف خبراً ونُذيع به دون تمحيص وتدقيق، نحسبه هيناً وهو عند الله عظيم، وكم نغتالُ من الشخصيات البريئة دون أن نتكلف عناء التدقيق، نرمي الكلمة ولا نلقى لها بالاً، فتترك انطباعاً سلبياً عن فلان، ثم نتعامل معه اعتماداً على هذا الانطباع، بسلبية قاتلة، تمحق الأخوة وتُفضي لما هو أسوأ، وصدق رسولنا العظيم ﷺ، عندما قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة، لا يُلقي لها بالاً، يهوي بها في نار جهنم، وإن الرجل ليتكلم

بالكلمة، لا يُلقي لها بالاً يرفعه الله بها في الجنة»، وقال أيضاً: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة».

ونحن في حياتنا اليومية في الجامعات والشركات والتنظيمات المختلفة – بما فيها الإسلامية – يأكل بعضناً بعضا، غيبة ونميمة وتشويها للآخرين، خاصة إذا كانوا منافسين على منصب أو وظيفة، تتخرج الأجيال وتنتشر في أطراف الدنيا؛ فمن سيصحح لها المعلومة الخاطئة؟، لا بل يموت من يموت وهو ظالم لنفسه أو لغيره، وتموت معه حقيقة أو انطباع غير صحيح، ولكن يبقى من يُعاني من ترسباتها وما ينبني عليها، وكل ذلك في سجلّ العليم الخبير إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أما آن للذين ينفثون سمومهم هنا وهناك من خلال الكلام المبطن، أن يتذكروا أنهم محاسبون على ما تقذفه ألسنتهم؟، بل أما آن للذين يوزعون إتهاماتهم عن اليمين وعن الشمال، أن يفعلوا لأنفسهم خيراً فيصمتوا؟، لأن رسولنا الكريم يؤكد بسؤاله الإستنكاري أن هذه كارثة على صاحبها حين قال: « وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ على وُجُوهِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»، وأمّا نحن السّماعون لهم، أما آن لنا أن نتحقق وندقق في ما نسمع؟، لماذا نؤجرعقولنا لغيرنا؟، نفوز بالإثم الكثير ونحن نظن

أننا نحسن صنعاً، ويا تُرى لمن قال رسول الله ﷺ «لا يكن أحدكم إمعة يقولُ أنا مع الناس إذا أحسن الناس أحسنتُ وإن أساء الناس أسأتُ، ولكن وطّنوا أنفسكم على الخير فإذ أحسن الناس أحسنوا وإن أساءوا فتجنبوا إساءتهم».

وأخيرا لاتُصدق كل الذي تسمع، فلكلٍ منا هواه، وفي كلٍ منا مركبُ نقصٍ، وكلٌ يُؤخذ من كلامه ويُرد إلاّ رسول الله ﷺ.

بعثة للدكتوراه ولكن...!!

تأسست في الأردن الجامعة الأولى (الجامعة الأردنية) عام ١٩٦٢م، وقد كان فرح الأردنين بها لا يُوصف، وبقيت هكذا يتيمة ووحيدة حتى عام ١٩٧٦م، حيث تأسست جامعة ثانية في شمال الأردن وهي جامعة اليرموك، وكان فرحنا بها أعظم، حيث كثُر عدد الدارسين، الذين كانوا يضطرون للدراسة في البلاد الأخرى خارج الأردن، لذلك كان تأسيسها في وقته لكي تسد حاجة ملحة للأردنين.

تقدمت حسب الأصول إلى اللجنة الملكية التي أشرفت على تأسيس الجامعة، وحسب الإعلانات الرسمية المنشورة للحصول على بعثة دراسية لدرجة الدكتوراه، وبعد أخذ ورد، ودراسة شهاداتي الثلاثة، كان لابد من موافقتهم، لما في اوراقي من تفوق وتوصيات إيجابية من أساتذتي الذين أشرفوا على دراستي وأبحاثي الجامعية، وأخيراً صدرت الموافقة على إبتعاثي، ولكن شريطة الحصول على قبول من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ولاغير.

لاشك أنني كنت فرحاً بهذا الابتعاث رغم أنه مشروط، لأنني كنت أجتهد أن أخفف الأعباء المادية على إخواتي – جزاهم الله خيراً – الذين تكفلوا بدراستي الجامعية من أولها، فبدأت بمراسلة الجامعات الأمريكية

المختلفة مع نهاية عام ١٩٧٧م، وقد كنت حينها في اللمسات الأخيرة للحصول على درجة الماجستير في فلسفة العلوم الطبية من مركز (جناح) للتخصصات الطبية العليا في كراتشي، ولذلك كنت أحث الخطى وأجتهد لإختصارالزمن، فحصلت على الشهادة بامتياز - والحمد لله - في الحد الأدنى المخصص من الزمن.

عُدت وزوجتي إلى الأردن من باكستان، فرحين بالتفوق، مستبشرين بسرعة السفر إلى أمريكيا لإكمال الدكتوراه، خاصة وأنه كان بيدي أكثر من قبول مبدئي من جامعات أمريكية، وآخر من المملكة المتحدة، للبداية في صيف عام ١٩٧٨م.

وعندما قدمتها لرئيس الجامعة في حينها للسير في اجراءات الابتعاث، فوجئت بردها وعدم قبولها بحجة أنهم يُريدون قبولات في جامعات بعينها، علماً أنهم أرسلوا غيري لنفس هذه الجامعات التي قُبلت بها، أما الدراسة في بريطانيا فغير قابلة للنقاش عندهم.

بدأت المراسلات البريدية من جديد، وهذا طبعاً يحتاج إلى وقتٍ طويل، لأن المراسلات الإلكترونية من خلال (الإنترنت) (والإيميل) لم تكن موجودة في السبعينيات من القرن الماضي.

ومرة أخرى وبعد طول انتظار حصلت على قبول مبدئي جديد، وتنفست الصُعداء، وكنت فرحاً به، لأنني لا أطيق الجلوس بلا عمل

أو دراسة أو إنتاج، حملته وذهبت به من عجلون إلى اربد حيث الرئيس، رئيس الجامعة، وللأسف رفضه مرة أخرى بنفس الحُجة السابقة، وكأن القرار متخذ سلفاً، كان يبدو دائم الانشغال وليس لديه وقت لمناقشة الأمر وسماع وجهة النظر الأخرى، وكأنه لا يطيق الكثير من النقاش.

خرجت من عنده، عابساً مُقطّب الجبين، اتميز من الغيظ من سوء تصرفه، فقابلني موظف فاضل من العاملين في الجامعة، -أظنه من الإخوان المسلمين ولكنه كان يكتم إيمانه -أ فسلّم عليّ وسألني إن كانت قد فُرجت؟، فأخبرته بما حصل، فحوقل وهمهم ولكنني لم أتبين ما قال، فسألته لأتبين الأمر، وبعد تردد قال: ملفك فيه إشارة معينة، لن يقتنعوا بأي قبول بغض النظر عن إسم الجامعة ما دامت هذه الإشارة موجودة.

وقد تبين فيما بعد، انها إشارة من بركات الأجهزة الأمنية لأنني كنت من الإخوان المسلمين، فحال هذا النيشان دون الاستفادة من هذه البعثة، والنتيجة أن ضاعت سنة كاملة دون دراسة (١٩٧٨ – ١٩٧٩م)، وقد أمضيتها في عجلون، استراحة إجبارية، ربما زاد فيها رصيدي الثقافي وخاصة الديني منه، ولكن الذي زاد حقيقة وبشكل ملحوظ هو التعبئة النفسية والمخزون المُحفز للدراسة، وقد استفدتُ منه كثيراً اثناء دراستي في بريطانيا، حيث أصر إخواني جزاهم الله خيراً على مواصلة دراستي على نفقتهم الخاصة، وهذا ما حصل كما يظهر في المحطة التالية.

بقي أن أقول، لو كنت أعلم ما كتب الله لي من خيرعميم في دراستي في بريطانيا، لفضلتُ ذلك دونما تردد على بعثة جامعة اليرموك إلى أمريكيا، ولكن الاستعجال والجهل من طبائع النفس البشرية الضعيفة. ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

ولهذا يجب أن لا ننسى في كل الظروف والأحوال قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وفي الوقت نفسه، يجب أن لا ننسى بأن الحياة كلها امتحانات من الله للإنسان، يُعطي هذا، فيظلم ويتجبر ليبوء بإثمه، ويُعطي ذاك فيُحسن ويعدل ليفوز بالأجر والثواب، والحكيمُ منّ صوّب عمله أولاً بأول، وانطبق عليه قول منّ قال: «يظل الإنسان في هذه الحياة، مثل قلم الرصاص، تبريه العثراتُ ليكتب بخط أجمل، وهكذا حتى يفنى القلمُ، ولا يبقى له إلاّ جميلُ ما كتب».

الدراسة في بريطانيا

حصلت على قبول مبدئي للدكتوراه في كلية الطب في جامعة مانشستر في بريطانيا، شريطة الحصول أولاً على دبلوم متقدم مدته عام.

سافرت إلى مانشستر برفقة زوجتي في رمضان بتاريخ ١٠/٨/١٩٧٩م أي قبل الدراسة بشهر كامل، وقد عرفت الكلية جيداً، ورتبت أمور السكن عند عجوز وحيدة، عمرها ستون عاماً، وقد عانيت قليلاً أثناء البحث عن السكن، بسبب الشروط التي وضعتها للسكن المناسب، إذ لا بد أن يكون بيتاً صغيراً مستقلاً ما أمكن، وعند سيدة عجوز لا تشرب خمراً، ولا تقتني كلباً، وكان لي كل ذلك، وبدأت الدراسة الذاتية قبل البداية الفعلية للكلية.

كانت الشهادة الأولى هي دبلوم متقدم في علم الفيروسات والمناعة، وهي أصعب شهادة في كل دراستي على الإطلاق، محاضرات مركزة ومختبرات عملية طويلة تستغرق معظم الوقت، كنا سبعة عشر طالباً من أربع عشرة دولة، وقد حدث أثناء وبعد هذا الدبلوم أمور مهمة لا بد من ذكرها:

كان رئيس قسم البكتيريا بروفيسوراً اسمه «باترك كولارد»، إنجليزي الأصل والفصل، يعرف اللغة العربية؛ لأنه خدم في العراق، وفي فلسطين، أيام الانتداب البريطاني، وهو حقاً عالم بالجراثيم، إذ

أمضى حياته متفرغاً لذلك، وكان يعمل في كليتين مختلفتين، الأولى في جامعة لندن والأخرى في جامعة مانشستر، وكانت محاضرته الوحيدة الأسبوعية لنا في وقت صلاة الجمعة تماماً، لأن يوم الجمعة هو يوم عمل عندهم، وكنت أنا ومعي شاب عربي آخر نريد أن نصلي الجمعة، لكننا إضطررنا للغياب عنها كونها أول محاضرة للدكتور (باترك)، علماً أننا في ذلك الوقت كنا لا نجد مكاناً للصلاة، فأضطر للصلاة في بيت الدرج، أما مكان صلاة الجمعة فهو بعيد عن الكلية، ولكن الوضع الآن مختلف تماماً حيث المصليات في كل مكان ولله الحمد.

وقبل الجمعة الثانية أي موعد المحاضرة، تشاورت مع زميلي واتفقنا أن نقابل البروفسور قبل محاضرته ونشرح له الأمر، علّنا نجد حلاً مناسباً، وفعلاً كان ذلك قبل موعد الصلاة بساعة، وعندما وصلنا باب مكتبه خاف زميلي من ردة فعل سلبية للبروفيسور، وانعكاس ذلك على نتائج دراسته، فعاد أدراجه ولم يذهب معي.

أما أنا فحزمت أمري، وتوكلت على الله، وقرأت ما استذكرت من الأدعية، ودخلت عليه متوضئاً، فحييته وقلت لـه: إن المادة التي تدرّسها هي مادة شيقة وممتازة، وفعلاً هي كذلك - وكان الكتاب المعتمد من تأليفه - وقلت لـه: إنني درست كتابك كله قبل بداية الدراسة الرسمية - وكان ينظر إلّي بكامل الانتباه -، وأكملت قائلاً: ولكن عندي مشكلة،

فأثارته هذه الجملة وقال: ما هي؟، قلت: هي تعارض وقت محاضرتك القيمة مع صلاة الجمعة، وهي صلاة في غاية الأهمية بالنسبة لنا نحن المسلمين، لا نستطيع أن نتغيب عنها -طبعاً كنت أتكلم وأنظر إلى تعابير وجهه- وهو يصغي باهتمام، دون أي تعليق، وبعد أن أنهيت كلامي أجابني باللغة العربية قائلاً: «الذي تُسأل عنه يوم القيامة، أهم من الذي تُسأل عنه يوم الامتحان» ولم يزد، فشكرته وانصرفت ذاهباً للصلاة وذهب هو للمحاضرة.

وعندما عُدت لاحظت أنظار الطلاب تتجه إليّ، وسألوني فور وصولي باستغراب: هل تكلمت شيئاً مع البروفيسور؟، فقلت لهم: نعم، فما الذي حدث؟، قالوا جاء على الموعد لكنه لم يُلقِ محاضرته، وأخبرنا أنه غيَّر موعدها؛ لتصبح يوم الخميس بدلاً من يوم الجمعة، معللاً ذلك بتعارضها مع أمر هام لأحد زملائكم (على حد تعبير البروفيسور نفسه)، دون ذكر اسمك، ولأننا وجدناك الغائب الوحيد، عرفنا أنك المقصود، فعرفوا جميعاً مني السبب، فكانت دعوة للإسلام بطريقة غير مباشرة.

كانت في تلك الفترة قمة الثورة الإيرانية (١٩٧٩-١٩٨٠)، فإذا تكلم أحد بما لـه علاقة بالشرق أو بالإسلام أو بالإمام الخميني، كانوا ينظرون إليّ وخاصة البروفسور (باترك)، وكأنني مندوبٌ للعالم الإسلامي في الغرب.

إحفظ الله يحفظك....

كان البروفيسور (باترك كولارد) يحب النقاش والحوار، وقد تعلمت منه الكثير خاصة في فن الإنصات للمخالف في الرأي، وكان من ضمن برنامجه التعليمي المعتمد في الكلية، أن تُخصص جلسة طويلة كل يوم إثنين (أي بداية الأسبوع)، لتجتمع فيها الهيئة التدريسية كاملة مع جميع الطلاب في الدبلوم، والمطلوب هو أن تسأل الأساتذة او يسألوك عن كل ما تم تدريسه وعمله في الأسبوع المنصرم، وقد كانت هذه الجلسة على صعوبتها من أهم ما تعلمناه، لأننا كنّا نحضّر لها لنتجنب الإحراج أمام كامل الهيئة التدريسية.

وأذكر نقاشاً دار بيننا في نهاية محاضرة له بخصوص تعليل وتفسير تخلي جهاز المناعة عن صاحبه إذا زنى وأصيب بمرض جنسي ثم تعالج منه، ثم زنى مرة أخرى، فألأصل أن يحميه جهاز المناعة كالعادة من أن يصاب مرة ثانية بالمرض نفسه، إلا أنه لا يفعل، بل يتخلى عن صاحبه ولا يحميه، فقال البروفسور: لا يوجد تفسير علمي لذلك، فقلت له أنا لدي تفسير فرحب جداً، فقلت: إن الذي خلق جسم الإنسان وأجهزته هو الذي يوجهها، فما دام أن الله قد حّرم الزنا والشذوذ فمن الطبيعي أن يوجه جهاز المناعة هكذا، خاصةً أن مثل هذه الأمراض هي اختيارية لا

تُصيب إلا الذين يختارون الزنا بمحض إرادتهم؛ رغم علمهم بأنه محرم في كل الأديان السماوية، فقال أتفهم وجه نظرك وأحترمها، وهي تدخل عندي في باب الفلسفة الدينية، ولكن أعذرني، أريد أن أستمتع بما تبقى من عمري، وكان معروفاً بشرب الخمر، وكان مما حز في نفسي بصمت أن يتبنى الطلاب العرب المسلمون الذين كانوا معي نفس رأيه.

ومضت الأيام وانتهت هذه السنة الصعبة الطويلة والتي كنت أشعر فيها أن كل حركاتي مراقبة ومحسوبة، وكانت توجه لي أسئلة دون غيري من الطلاب، مما كان يثير في نفسي هواجس سلبية، علماً أنني كنت أواصل الليل بالنهار دراسة وتركيزاً.

وعندما أنهينا الامتحانات الكتابية، كان هناك امتحان شفوي وهو الأصعب، حيث يجلس الطالب أمام خمسة ممتحنين أحدهم خارجي ليسألوا ما يحلو لهم، وقد تعجبت عندما كان دوري لماذا ركّزوا عليّ، وربما جلست معهم ضعف المدة المعتادة مع الآخرين، ورغم تأكدي من إجاباتي إلا أن الهواجس السلبية قد زادت عندي خاصة أنني كنت أراهم ينظرون بوجوه بعضهم بعد كل جواب، لذلك كنت أردد بيني وبين نفسي "اللهم اكفنيهم بما شئت". حتى أنني سُئلتُ من الطلاب لماذا تأخرت عندهم كل هذا الوقت؟.

وبعدما انتهوا من امتحان جميع الطلاب، أُخبرونا بأن النتائج

ستظهر أمام مكتب مسجل الجامعة في الإدارة الرئيسية، على اللوحة الساعة (١٢) ظهراً، فذهبنا جميعاً طلاباً وطالبات للانتظار أمام المكتب المذكور، وكانت ساعات صعبة وطويلة جداً في حياتي، لأن هذه النتيجة يترتب عليها فصل من الجامعة أو الدخول مباشرة في برنامج الدكتوراه، وفي الوقت المحدد خرج من يُعلق ورقة النتائج على اللوحة الخاصة، وعندها تدافعنا ليعرف كلٌ نتيجته، ولّما لم أجد اسمي بين الناجحين دارت بي الأرض.

وكانت لحظات عصيبة جداً، ولم أنتبه إلاّ على كلمات التهنئة من الطلاب والطالبات من حولي، فقلت: على ماذا؟! فقالوا: "على الامتياز" إذ كانوا قد وضعوا اسمي فوق في خانة خاصة لم أنتبه لـها، وعندما رأيت اسمي وتأكدت من ذلك، استدرت مسرعاً لأجد مكاناً نظيفاً أسجد فيه شكراً لله على ذلك، فلم أجد أمامي إلاّ كوخ الحارس، وهو تقليد عند الإنجليز كوخ وحارس في الأماكن المهمة، فاستأذنته لأدخل الكوخ، فقال: لماذا؟ فأخبرته أنني أريد أن أصلي فيه، وأشكر الله على هذه النعمة - نعمة الامتياز- فعندما عرف الأمر قال: أوه...أوه معنى هذا أنك ستشرب خمراً كثيراً هذه الليلة احتفالاً بالتفوق.

فانظر بربك كيف يفكر المسلم وبماذا يفكر الآخرون، فالحمد لله على نعمة الإسلام، الذي أكرمنا بتصور كامل سليم للحياة، وأرشدنا

إلى أحسن الطرق وأسلمها في كل شيء، وعلمنا كيف نتمتع ونعيش الدنيا بطعم الآخرة لنفوز بالدارين معاً، أما حياة اللعب واللهو والطعام والشراب والجنس فلن تتعدى متعتها ساعتها، وستفضي إلى شقاء لا نعيم بعده.

كنت ولله الحمد والمنة أحظى باحترام وتقدير كبيرين من هذا البروفيسور، حتى أنه كان يَذْكُرني كثيراً بالخير، في غيابي، كما أنه زارني في الأردن في منتصف الثمانينيات، وبقي يسأل عني كلما قابل طالبا من الأردن، وصدق المثل الانجليزي الذي معناه "إذا أردت أن يحترمك الناس فلا بد أن تلتزم مبدأ وتثبت عليه"، فكيف إذا كان المبدأ هو شرع الله، فمن يلتزم به لن يضل أبداً وصدق رسول الله ﷺ "احفظ الله يحفظك...."

وللحقيقة والتأريخ فإن شكوكي وهواجسي السلبية التي ذكرتها سابقاً، والتي عانيت منها بصمت بسبب تركيزهم عليّ، قد ثبت بطلانها وأن لا أساس لها وإنما هي وساوس من الشيطان، وثبت لي فيما بعد أنها مزيد من التقييم الإضافي قبل منح الامتياز.

ومن الجدير بالذكر أن زميلي الذي خاف أن يذهب معي لمقابلة البروفسور بخصوص صلاة الجمعة قد أخفق، وفُصل من الجامعة كليا، لأنه ربما نسي «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب».

السكن عند السيدة العجوز في مانشستر

قدر الله أن يوفقنا إلى سكن، كنت أتمناه أنا وزوجتي، عند سيدة عجوز كبيرة، لا تشرب خمراً، ولاتقتني كلباً، وكان اسمها السيدة (ليبرت) وكانت تسكن الطابق العلوي، ونحن نسكن الطابق الأول، في بيت مستقل وحديقة مستقلة، وقد عرفنا لاحقاً أن زوجها قد مات، ولم يكن لها إلا بنتٌ واحدة متزوجة، لم نرها إطلاقاً، إذ لم تزر والدتها طيلة سنوات وجودنا معها.

من حسن حظي أن هذا السكن لايبعد إلا حوإلى أربعة كيلومترات عن الجامعة، وبالتالي لا أحتاج إلا إلى مواصلة واحدة في الذهاب والإياب، ووسائل المواصلات متيسرة جداً، والحافلات منتظمة في مواعيدها، ولذلك لم أجد حاجةً ملحة لاقتناء سيارة، ولم أجد في الحافلة ما يعكر صفوي إلا شيء واحد كنت أراه كل صباح، حيث كان في طريقنا متجر كُتب عليه باللغة العربية والإنجليزية ما معناه «نفتخر بتقديم أرقى المأكولات العربية»، كنت أتضايق بصمت كلما قرأت هذه العبارة وأتمنى لو أننا أفتخرنا في الغرب بقيمنا الإسلامية العظيمة، وليس بحشو المعدة من الطعام والشراب.

كان التعامل مع السيدة العجوز في السنة الأولى يغلب عليه الطابع الرسمي، وكنا نحسن إليها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؛ نرسل أليها بعض الطعام العربي الذي أحبته، وندعوها لتناول فنجانٍ من الشاي، وبعد أن عرفتنا جيداً، وتوطدت العلاقة بيننا، أخذت تقدم لنا خدمات لا تصدق، تحملنا بسيارتها الخاصة إلى المسجد، وتأخذ زوجتي من الكلية وإليها في الوقت المحدد، ونظن أنها قد غلبتنا بالإحسان، حتى طمعنا بإسلامها على أيدينا، فكلمناها بذلك، وأهدتها زوجتي كتباً عن الإسلام، إلا أنها اعتذرت بأدب ولم تستجب.

في ذات يوم كانت في حديقة المنزل -وكانت تحافظ على تناسق الحديقة وزهورها ونجيلها بشكل مستمر- وكانت الشمس ساطعة، والجو مناسبا جداً للجلوس في الحديقة، فدعتنا للجلوس معها، وأحضرت لنا مقاعد خاصة، يستعملونها لأخذ أكبر قسط من الشمس، في مثل ذلك الجو النادر عندهم.

جلسنا معاً وسألتنا بعض الأسئلة، وباحت لنا ببعض مكنون صدرها، سألت زوجتي قائلة: يمر يوم كامل ولا أسمع لكما صوتاً، حتى أنني أشك أنكما في البيت، ألا تتشاجران كباقي الأزواج؟.

ضحكنا وكنا نظنها تمزح، ثم أكدت أنها جادة، فقلنا لها: لا داعي للشجار، مادام كلٌ يعرف حقوقه وواجباته.

قالت: غريب! هل كل أهل الأردن مثلكم؟

فلم يكن لدي جواب إلا أن قلت: نعم.

قالت: إن كان ذلك كذلك فلا شك أن المسلمين سيسودون العالم، ثم قالت لنا: نساؤكم أميرات، إذا طلبن أمراً، يأتيهن إلى البيت، وإذا رغبن الذهاب إلى مكان ما، تأخذونهن بالسيارة من البيت، وتعيدونهن بالسيارة كذلك،! دلال ما بعده دلال!،

ثم أردفت تقول: أتدرون لماذا نخرج نحن الإنكليزيات من البيوت؟،

نخرج للعمل والتحصيل، لأننا لا نجد من ينفق علينا ويخدمنا، لو نجد نصف ما تجد نساؤكم لما خرجنا من بيوتنا، أتدرون لماذا يربي الكبار منا كلاباً في البيت؟، ببساطة لحمايتنا، ثم لتدل علينا إذا متنا.

ابنتها لم تزرها قط خلال ثلاث سنوات علماً أنها تسكن بريطانيا.

قلت في نفسي: يا إلهي!، ليت كل نساء المسلمين يسمعن هذا الكلام، من هذه المرأة الكبيرة، الخبيرة، العجوز التي عجنت الحياة وخبزتها كما يقولون.

نعم المرأة المسلمة ملكة في بيتها، ومن مدرستها وحنانها، تتخرج الأجيال، وبحُسن تدبيرها تصبح الأكواخ الصغيرة قصوراً، وتتحول اللقيمات المعجونة بالرضا إلى مآدب ضخمة، وبمخلوط التعاون ومزيج

الحب والقناعة تُزهر الحياة وتنصرف الجهود للإنتاج.

ويكون الأمر «ليس وراء كل عظيم امرأة» فقط، بل أيضاً «أمام كل عظيم امرأة».

لو علمت نساء المسلمين كم هي تعاسة المرأة بالغرب، لعرفن كم هن محسودات على سعادتهن، فالبنت عندنا ندخل بها الجنة وتحمينا من النار، والزوجة تجعلنا نعيش الجنة ونحن أحياء، أمّا الأم فلا مثيل لها ولا بديل، حضنها جنة، وتحت أقدامها جنة، حبّ فيّاض، وخدمة موصولة، وتعب بلا مقابل، وحنان لاينضب، فمن يستطيع أن يرتقي إلى مستواها؟!.

ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم شاعر النيل حين قال:

الأم أستاذ الأساتذة الأُلى شغلت مآثرُهم مدى الآفاقِ
الأم روض إن تعهدهُ الحيا بالرّي أورقَ أيّما إيراق
الأم مدرسةٌ إذا أعددْتَها أعددْتَ شعباً طيب الأعراق

ورحم الله من عَدَّ المرأة مخلوقا كريماً، وجنساً عظيماً، فالنساء شقائق الرجال، وأمهات الأبطال، ومدارس المجد، وصانعات التاريخ، وحدائق النبل والكرم، ومعادن الفضل والشيم، وهن أمهات الأنبياء، ومرضعات العظماء.

إنهن حاضنات الأولياء، ومربيات الحكماء، فكل مقدام خلفه أمّ حازمة، وكل ناجح معه زوجة مثابرة صابرة، فهنّ مهبط الطهر، وميلاد الحنان والرحمة.

وهنّ مشرق البر والصلة، ومنبع الإلهام والعبقرية، وقصة الصبر والكفاح، فلا جمال للحياة إلا بالمرأة، ولا راحة في الدنيا إلا بالأنثى الحنون، فآدم لم يسكن في الجنة حتى خلق الله له حواء، فتباً لمن ظلم المرأة، وسحقاً لمن سلبها حقوقها.

يقول أحدهم: كنتُ أروي لعائلتي موقفاً محرجاً.

فقلت: انسكبت عليّ القهوة قبل أن أخرج لتقديم الحفل أمام الجمهور، فقالوا: جميعاً ماذا فعلت؟، استغراباً واستهجاناً، إلاّ أمي قالت: هل تأذيت؟.

فتوحات وتوفيق في مانشستر

بعد هذا التفوق في الدبلوم المتقدم، فتح الله عليّ بأمور كثيرة جداً، منها أن انهالت عليّ عروض مختلفة ومغرية من الأساتذة لدراسة الدكتوراه، كلٌ يريد أن أكون طالباً تحت إشرافه، فاخترت أستاذة في بداية العقد السادس من عمرها، أسمها (آن مستراتس) (Ann-Mostratos) فرتبت لي برنامجاً، أستطيع معه تدريس طلاب البكالوريوس، لأحصل على مرتب جيد، وفوق هذا رشحتني الكلية لجائزة المجلس البريطاني المخصصة للمتفوقين من الطلبة الأجانب، وفزت بها ولله الحمد والمنة ومقدارها (١٥٠٠) جنيه إسترليني وهذا مبلغ ضخم بالنسبة لي في حينه.

كنت عضواً في جمعية الطلبة المسلمين في بريطانيا، وهي جمعية طلابية تضم أصحاب التوجه الإسلامي من كل الجنسيات، وقد أسسها نفر من كرام المسلمين أثناء دراستهم في بريطانيا أمثال الداعية الأستاذ الدكتورعمرعبد الله ناصيف، والداعية الأستاذ الدكتور سليم الحسني، وغيرهم، وبعد أن أنهيت درجة الدبلوم أصبحت مسؤولاً عن الجمعية في منطقة مانشستر.

كان ومازال في مانشستر مسجد رئيسي أصله كنيسة، اشتراها تجار أثرياء من أصول سورية، وهم من سكان مانشستر القدماء، وحوّلوها

إلى مسجد سُمّي باسم المنطقة "مسجد ديسبري"، وكنت أحد أعضاء الإدارة فيه، وقد تحول لاحقاً إلى مركز إسلامي معتمد، لما له من نشاطات وتأثير وسط الجالية الإسلامية.

هؤلاء التجار، أنفسهم جزاهم الله خيراً، كانوا يتبرعون للمسجد باستمرار- رغم أن ظاهرهم لا يُنبىء أنهم ملتزمون بجوهر الإسلام - حتى أصبح مركزاً حيوياً، فمثلاً في رمضان كانوا يتكفلون بكل نفقات الإفطار والسحور لكل من يحضر إلى المسجد من عائلات وطلاب، مما أتاح اجتماع معظم الجالية الإسلامية في المنطقة تلقائياً، خاصة أيام السبت والأحد، مما نشّط العمل الإسلامي الطلابي في المنطقة كلها، حيث كان المسجد في رمضان كخلية النحل، وكل كان له نصيب، نشاطات طلابية شبابية وأخرى نسائية وحتى الأطفال، بحيث أن مانشستر في حينها أصبحت مضرب المثل في التواد والتراحم.

مرحلة الدكتوراه، أسهل بكثير من مرحلة الدبلوم، حيث كان لدّي متسع من الوقت للعمل الإسلامي، من خطبة الجمعة إلى المحاضرات في مختلف المناطق والجامعات، وذات مساء زارني أخوان كريمان من العراق، طلبا مني نسخاً من شهاداتي، ولما سألتهم عن السبب قالوا: إن وزير التربية والتعليم في الإمارات العربية المتحدة - رحمه الله - قرر أن يبتعث مجموعة من الطلبة العرب المتفوقين على نفقة الإمارات، وكنت ولله

الحمد أحدهم، فجزاه وجزاهم الله خيراً، وهكذا تحولت فجأة من طالب يعيش بالحد الأدنى على نفقة أشقائه إلى مبعوث ميسور الحال، وفوق هذا وذاك كنتُ معيداً في الكلية براتب جيد، فسبحان مغير الأحوال الذي بيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

قسّمت وقتي جيداً والتزمت بذلك، فالدراسة والكلية لهما كامل أيام الدوام الرسمي، والعمل الإسلامي والزوجة لهما كامل نهاية الأسبوع، من مساء الجمعة إلى صبيحة الإثنين مع أيام العطل الأخرى، وكان لهذا التقسيم والالتزام به وتوفيق الله نتائج رائعة، فعلى المستوى الدراسي أنني وبفضل الله استطعت أن أنهي الدكتوراه فقط في سنة ونصف (ثمانية عشر شهراً) بعد الدبلوم، وكان فيها إنجازات علمية، لا يمكن أن تحصل لولا توفيق الله، منها براءتا اختراع، لطرق تشخيصية جديدة، سجلتهما الجامعة في بريطانيا، وحقيقة جديدة لها علاقة بمرض الزهري(السفلس)، وبالذات بالطور الثالث لهذا المرض، الذي كان لغزاً يحير الأطباء، ففسرَتْه هذه الحقيقة التي أثبتّها، ونتيجة لقيمة المعلومات الواردة في رسالة الدكتوراه، مُنِعَت عن الجمهور في المكتبة العامة لمدة ثلاثة أعوام، حتى تستغل الجامعة كل ما فيها تجارياً، (وهذا قانون خاص برسائل الدكتوراه التي تحوي أموراً علمية جديدة)، كانت تعليمات الجامعة تنص في حينها أن الحد الأدنى للدكتوراه هو سنتان (أربعة

وعشرون شهراً)، أما في حالتي فقد قرروا أن يعتبروا سنتين أكاديميتين (ثمانية عشر شهراً)، وقد كان ذلك.

كل ذلك دون علم أو طلب مني، فانظر كم هو التشجيع للتحصيل والبحث والاكتشاف.

ومن الأمور التي لا أنساها أبدا أثناء الدراسة، أن اثنين من المدرسين في الكلية كانا يهوداً، أحدهم كان مثالاً للجدية والمثابرة وحُسن التعامل مع الطلاب والإنتاج العلمي، فكان محط إعجاب زملائه الأساتذة في الكلية ومحل احترام الطلاب، والآخر عالم بدرجة بروفسور مختص بجهاز المناعة، عنده شيء من الغموض وكثير من الجدية، كان يأتي إلى الكلية على الدراجة الهوائية ذهاباً وإياباً، وكنت أستغرب عندما أراه في نهاية الدوام وهو يستعد للمغادرة، حيث يلف بنطاله من الأسفل بما يُسمى باللغة العسكرية «الطماقات الصفراء»، حيث يستعملها العسكري فوق الحذاء الخاص لتثبيت البنطال جيداً، وهي من كمال الاستعداد العسكري، ولما سألت أحد طلابه عن هذا وغيره من التصرفات، علمتُ أنه يذهبُ في العطلة الصيفية إلى فلسطين المحتلة فيتدرب ويُجدد لياقته العسكرية ويعود للتدريس.

فعينٌ على عمله والأخرى على دولة الاحتلال، فأين نحن شباباً وشيباً من فلسطين؟، بل أين نحن من أقصانا وقبلتنا الأولى؟!.

الناس في مساجدهم والله في قضاء حوائجهم

في يوم الأحد الموافق ١٧/ ٨/ ١٩٨٠م رزقني الله بابني الأول «محمد» وكانت فرحتي به غامرة، وبعد مدة لاحظنا أن أحد أصابعه مثني، ولا يستطيع أن يمده كاملاً بشكل مستقيم، ولمّا رأه الطبيب الجراح قرر له عملية يفك فيها رباط الأصبع ليصبح عادياً، وحدد لذلك موعداً، وعندما عُدنا إلى البيت وجدت أن لدّي محاضرة إسلامية للطلبة المسلمين في جامعة سالفورد، في الموعد نفسه.

وفي الموعد المحدد للعملية أخذناه إلى المستشفى دون طعام أو شراب (رغم بكائه وتوسلاته) حسب تعليمات الطبيب، وقبل الموعد بنصف ساعة كان عليّ أن أترك زوجتي معه في المستشفى، ثم أغادر لإلقاء المحاضرة للطلبة المسلمين، وفعلاً استودعتهم الله الذي لا تضيع ودائعه وذهبت، وفي هذه الأثناء أرسل لي الطلبة أخاً ليأخذني بسيارته للمحاضرة، ولما لم يجدني في البيت أخبرته جارتنا السيدة العجوز أننا في المستشفى، فلحق بنا وأخبرته زوجتي أنني ذهبت إلى المحاضرة.

أثناء المحاضرة دخل أحدهم من أحد أبواب المدرّج العلوية، وكتب ورقة وأعطاها لمن أمامه وهذا بدوره أعطاها لمن أمامه وبقيت تنحدر في المدرج من واحد لآخر حتى وصلتني، ولما فتحتها وإذا بها

تقول: «أبشرك بأن أبنك قد عاد إلى البيت سالماً غانماً، حيث رأه الجراح الكبير وعمل له المطلوب بدقائق ودون تخدير عام، «حمدت الله بصمت وتنفست الصعداء وقلت في نفسي «الناس في مساجدهم والله في قضاء حوائجهم».

أكملت المحاضرة دون أن يعلم أحد بالأمر، وبعدها قام هذا الأخ الذي كتب الورقة وأخبر الجمهور بالذي حصل، وكيف أنني تحاملت على مشاعري الأبوية، وتركت زوجتي وإبني الوحيد على باب غرفة العمليات، وقدّمت العمل الإسلامي والوفاء بالموعد على ذلك، فكان ما كان، فدوى المدرُج بالتصفيق والتكبير، فاغرورقت عيناي بالدمع تأثراً وفرحاً، لأنني شعرت أن فائدة هذا الدرس الدعوي العملي كان أبلغ تأثيراً من المحاضرة نفسها.

كانت لأبحاثي سالفة الذكر وأمثالها مردود مادي على الجامعة وعلى الباحث، إذ أُنشِئت شركة لإنتاج الكواشف الطبية في حرم جامعة مانشستر، وبالذات في مبنى كلية الطب، واسم هذه الشركة (شركة بروتيس «protous company») حيث كانت البروفسورة (آن مستراتس) من أعمدة هذه الشركة، وهي التي أشرفت على أبحاثي السابقة، والنتيجة أنها قدّمت لي عرضاً مُجزياً وراتباً مُغرياً جداً للعمل معهم في تلك الشركة، إلاّ أنني اعتذرت بلطف.

أما على صعيد العمل الإسلامي مع الجالية وفي الوسط الطلابي، فكان ولله الحمد والفضل موفقاً ومنتجاً، حتى أنني تدرجت حتى أصبحت عضواً في مجلس الشورى على مستوى بريطانيا كاملة، ومحاضراً عاماً باللغة العربية واللغة الإنجليزية في مختلف التجمعات وإتحادات الطلبة في الجامعات المختلفة، وقد دُعيت كمحاضر يطرح رؤية إسلامية في وقاية المجتمع من الأمراض المنقولة جنسياً إلى العديد من الجامعات البريطانية، لأنني أثناء دراستي وبحثي لدرجة الدكتوراه في موضوع مرض الزهري أي السفلس، (وهو مرض جنسي ينتقل بالزنا والشذوذ الجنسي) ومخالطة المرضى وحوارهم، اطلعتُ على كثير من الحقائق العلمية والطبية في ما يخص مجمل الأمراض المنقولة جنسياً، وأن أُس البلاء في انتشارها هو الإباحية والشيوع الجنسي، من زنا وشذوذ جنسي وعدم التزام بأوامر السماء التي حرمت كل هذه الممارسات، نتيجة لهذا كله وضعت كتابي «الأمراض الجنسية عقوبة إلهية»، وأنا ما زلت طالباً في بريطانيا، حيث لاقى رواجاً كبيراً لدرجة أن إحدى دور النشر في لندن تولت طباعته ثانية وتوزيعه، ثم طُبع مراراً في الأردن والبحرين واندونيسيا وكوردستان، وأصبح يوزع مجاناً للشباب.

عودة إلى الوطن مع الإصرار

رغم العروض المغرية، والحياة الهانئة في بريطانيا، إلا أنني فضلت العمل في الأردن – رغم صدود بعض المسؤولين بسبب انتمائي الفكري لأني من عائلة معروفة بأنها من الإخوان المسلمين – وأمضيت بعض الوقت بحثاً عن عمل، حتى تيسر بعد جهد جهيد في كلية العلوم الطبية المساندة في جامعة اليرموك (١٩٨٢م)، أستاذاً للجراثيم الطبية، وقد أعطيت عملي جُلّ وقتي، فكنت يومياً أول الداخلين إليها وآخر المغادرين منها، ونشأت علاقة وثيقة بيني وبين طلابي، الذين ما زلت فخوراً بصحبتهم حتى الآن.

تركت الجامعة نتيجة لبعض تصرفات الرئاسة معي والتي لم تعجبني، وتوجهت إلى القطاع الخاص، حيث أنشأت مختبرات القضاة التخصصية للتحاليل الطبية في مدينة إربد، وقد انهال المرضى على المختبرات بشكل أكبر مما كنت أتوقع، فأخذ العمل فيها جُل وقتي، ولكن بسبب إلحاح الطلاب الذين كنت أدرّسهم، طلبت مني رئاسة الجامعة أن أعمل فيها ولو جزئياً، فوافقت على ذلك لحبي وتعلقي بهؤلاء الطلاب، وقد استمرهذا الأمر لأكثر من شهر، ثم اعتذرت الجامعة عن الاستمرار، بحجة توفر من يُدرّس هذه المواد داخل الجامعة، فشكرتهم

لانشغالي واعتذرت لطلابي وانصرفت كلياً للعمل في المختبرات.

فوجئت بالأسبوع التالي –ودون علمي– أن الطلاب قد أضربوا عن الدراسة، وطالبوا الجامعة بإعادتي، وقالوا لرئيس الجامعة – الدكتورعدنان بدران حينها– نحن؛ أي الطلاب على استعداد لدفع راتب الدكتورعبد الحميد، إذا كانت الجامعة فقيرة، وقد بذل الدكتور سعد حجازي (وكان عميداً للكلية في ذلك الوقت) جهداً كبيراً ترغيباً وترهيباً لإقناع الطلاب بالعودة إلى دراستهم، كما كان لي جهد مساند لهذا، حيث زارني هؤلاء الطلاب الأصدقاء في المختبرات، وقدموا لي رجاءً حاراً أن أعود للجامعة، ولو على نفقتهم الخاصة، فأفهمتهم أنني مشغول جداً ولا أستطيع الجمع بين العملين، ونزولاً عند إلحاحهم وافقت على العمل الجزئي، وكان عدد طلاب الدفعة الثانية في الكلية اثنين وثمانين، أذكر منهم غسان سحابي وتيسير حمّاد وعامر ناجي وأمين عواد وهاني عنبتاوي وسوسن الصغير...الخ، وكان من أكثر المتحمسين من الدفعة الأولى الطالب سمير القبطي والطالبة رولا غنما، وهما ليسا مسلمين. وفقهم الله جميعاً حيثما كانوا.

ومن جميل النوادر التي حصلت معي أثناء اشتغالي في المختبرات والتدريس معاً، أنني كنت دائم الانشغال بالمختبرات والمحاضرات والعمل الدعوي، أركض من هنا إلى هناك، كنت وما زلت – ولله

الحمد – من المهتمين بهندامي مع الربطة المناسبة، لأنني أعتقد أنّ من كمال الفائدة والتأثير بالآخرين – طلاباً أو مرضى أو مراجعين – أن يكون الإنسان مهندماً مرتباً ومنضبطاً بمواعيده، علاوة على تمكّنه من مادة محاضرته، خاصةً إذا كان داعية، وقد كان لديّ نوع من الربطات لا تلتف حول العنق، ولكن مجرد زر يُكبس على ملتقى طرفي ياقة القميص من الأمام، وأكثر من يستعمل هذا النوع هم المشغولون المستعجلون، والمشكلة في هذا النوع أنني كنت أحتار كيف أعلقه مع الملابس في الخزانة عند العودة إلى البيت، فكنت أعمد إلى كبس زر الربطة في الجيب الداخلي للجاكيت و تبقى هكذا معلقه معها.

والشاهد هنا أنني في صبيحة أحد الأيام كنت في قاعة المحاضرات أمام الطلاب، وأثناء المحاضرة مددت يدي لإخراج قلمي من الجيب الداخلي، فشعرت أن ربطتين تتدليان معاً على صدري، واحدة من رقبتي والأخرى من جيبي الداخلي، حيث يبدو أنني من السرعة والاستعجال في الصباح، استعملت ربطة جديدة للعنق ونسيت الأولى المدلاة من الجيب، فشعرت بقليل من الحرج، ومددت يدي دون أن أتوقف عن المحاضرة، وفككت زر الربطة المعلقة بالجيب الداخلي، وجمعتها شيئاً فشيئاً في راحتي وهي تحت الجاكيت ثم دسستها في الجيب نفسه، و كفى الله المؤمنيّن القتال.

ورغم أن عملي الجامعي بعدها اقتصر على المشاركة في الإشراف على رسائل الدراسات العليا، إلا أن رغبتي بالتدريس، والمحاضرات، وملاحقة كل جديد لم تتوقف، لذلك انشغلت بالمحاضرات العامة في الجامعات، والمعاهد، والمدارس، والمساجد، والمؤتمرات المختلفة داخلياً وخارجياً، مركّزاً على أمرين الأول سلسلة من المحاضرات تحت عنوان عريض مضمونه: «العلم يدعو إلى الإيمان»، والثاني سلسلة أخرى من المحاضرات في موضوع «وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً والإيدز».

كنت أُدعى بين الحين والآخر من قبل دائرة الإفتاء في القوات المسلحه الأردنية محاضراً في مؤتمرهم السنوي، ولهذا نشأت علاقة وثيقة مع أئمة الجيش الكرام، مما حدا بهم إلى دعوتي لإلقاء محاضرات علمية طبية، تثقيفة توعوية وقائية لأفراد كتائبهم وألويتهم، وكم كنت سعيداً بذلك، وقد اهتموا بهذا الجانب كثيراً، لدرجة أن سلاح الجو الملكي نقلني بطائرة هيلوكبتر إلى قاعدة في أقصى الجنوب، وأخرى في أقصى الشرق من الأردن لإلقاء مثل هذه المحاضرات، ولا أنسى الطيارين الكريمين اللذين كانا في الهيلوكبتر، إذ أرادا أن يُطلعاني على كيفية دور هذا النوع من الطائرات في المعركة، فكانا يسلكان ممرات بين الجبال وطرقاً موازية للهضاب، كانت تُشعرني أننا سنصطدم بجبل لا محالة، فكنت أغمض عيناي وأشد بيدي على قلبي، لأنني كنت أشعر

أنني أهوي في بئر سحيق، وبين انخفاض وارتفاع وسرعة عجيبة، كنت أحافظ على إبتسامتي المصطنعة، إبتسامة المتحامل على نفسه وهو يمشي إلى حبل المشنقة، ومع أنني تحاملت على نفسي وأظهرت قدراً كبيراً من الشجاعة، إلاّ أنني كنت أرتعد من داخلي، أما الطياران الكريمان فكانا يضحكان لأنهما استرجعا مشاعرالخوف بداية تدريبهما، ولكنهما قبل الهبوط في القاعدة اشترطا عليّ أن لا أبوح بالسر للقائد.

اجتهدت أن أستفيد من وقتي كله، ليلاً أو نهاراً، فداومت على استمرارية المطالعة والتعمق في كل ما يربط علمي وتخصصي بالإيمان، وقد ألّفتُ في هذا - ولله الحمد - العديد من الكتب وطبعتها ووزعتها مساهمة مني في تثقيف الشباب، وتوعيتهم في بلادنا العزيزة بنيّة أنها «تُهدى ولا تُباع» كنوع من زكاة العلم الذي رزقنيه ربي من غير حول مني ولا قوة، ومنها:

١- الأمراض الجنسية عقوبة إلهية.
٢- الطب الوقائي في الإسلام.
٣- الإيدز حقائق وأرقام.
٤- الفحص الطبي قبل الزواج.. ضرورة أم ترف؟
٥- الإيدز.. حصاد الشذوذ.
٦- جون والإيدز.. قصة من الواقع.

٧ نيران الإيدز تحرق شباب العالم، فمن المسؤول؟

٨- عجائب الميكروبات السبع.

٩- الميكروبات وكرامات الشهداء.

١٠- قـــوم لـــــوط فـــي ثوب جديد.

١١- الميثاق الأخلاقي للعاملين في التثقيف الجنسي.

١٢- قصص في الطهر و العفاف.

١٣- الشذوذ و الضلال مجلبة للعقوبة الإلهيه.

١٤- مبادئ الوقايه في الإسلام.

١٥ – أوراق متناثرة.

١٦ – خواطر متفرقة.

١٧ – الأمراض المنقولة جنسيا،سؤال وجواب.

١٨ – التربية الجنسية ضرورة أم ترف؟.

١٩ – الدليل التدريبي للوقاية من الأمراض المنقولة جنسيا والايدز.

٢٠ – العالِم الداعية ومنهجية التفكير.

٢١ – الرؤية الإسلامية في مواجهة الايدز (مع اخرين).

٢٢ – خواطر علمية.

٢٣ – كتاب مشروع وقاية الشباب.

٢٤ – محطات وعبر.

٢٥ – اربعة كتب باللغة الإنجليزية.

وبما أن مواضيع الأمراض المنقولة جنسياً، والمخدرات، والإيدز... الخ، مشاكل إجتماعية، وأكثر ضحاياها من الشباب، كان لا بد من إيضاح خطورتها لهم، لهذا كان الطلب كبيراً وغزيراً على هذا النوع من المحاضرات، من داخل الأردن وخارجه، بحيث تطور الأمر إلى سلسلة من المحاضرات والدورات في عمل عالمي كبير - سنفرد له محطة خاصة - تحت مسمى «مشروع وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً».

وهنا لابد من أن اقدم نصيحة للشباب، فرغم أن الإنسان يجب أن يكون إيجابياً منتجاً، متبحراً في تخصصه، يُشكل إضافة نوعية لمجتمعه ووطنه، يستفيد من وقته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إلاّ أن هذا يجب أن لا يكون على حساب زوجته وأولاده، فالحق أن يأخذ كلٌ نصيبه من الاهتمام والراحة والاستجمام، حتى في فترة قمة العطاء والنشاط، أُذكّر بهذا لأنني نسيت الكثير منه في غمرة النشاط والعمل، وندمت لأنني لم أطبقه تماماً في حينه، لأن الاستدراك المتأخر لايُعطي الأثر نفسه، فأحسن طعم للفاكهة هو في موسمها الطبيعي، وربما القلة هم الذين يتذكرون عملياً، ذلك من حُسن فهمهم وتطبيقهم لأوامر المصطفى ﷺ، الذي دلنا على ما ينفعنا دنيا وأخرة، حيث يقول: «صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقا"، (البخاري) ويقول أيضاً (إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك

عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط لكل ذي حق حقه).

وصدق من قال: إن هناك ثلاث مراحل مضحكة في الحياة، أولها في سن المراهقة، حيث تملك الوقت والطاقة، لكن ليس لديك المال.

ووسطها في مرحلة العمل حيث تملك المال والطاقة، لكن ليس لديك الوقت.

وآخرها في مرحلة الشيب حيث تملك المال والوقت، لكن ليس لديك الطاقة، ولهذا فهنيئاً لمن وعى وطبق حديث الرسول ﷺ من البداية وأعطى كل ذي حق حقه.

وللآخرين نصيب

نشأت علاقة طيبة بيننا و بين البروفسورة «آن ستراتوس» وخاصة مع زوجتي، حيث زارتنا في الأردن بعد التخرج مراراً، وأذكر أن أول زيارة لها عام ١٩٨٤م، حيث كنت أسكن في بيت مستأجر في مدينة إربد، ووضعي المادي على (قد الحال)، فجهزت لها شقة في السكن الجنوبي لجامعة اليرموك، وذلك بالتعاون مع الأستاذ الدكتور سعد حجازي، حيث كان حينها عميداً لكلية الطب، ورحب بها كبروفسورة زائرة للجامعة.

فلما وصلتنا، أكرمناها في بيتنا، ثم هممنا بنقلها إلى شقة الجامعة، وذكرت لها ترحيبهم بها كزائرة لكلية الطب، ففاجأتنا حين قالت: أرغب أن أبقى هنا عندكم، إذا توفرت غرفة زائدة في بيتكم، ولا يوجد مانع لديكم، فما كان منا إلا أن أطلعناها على غرفة نوم فيها سرير واحد، تنام عليه ابنتاي الصغيرتان، حيث لم يكن حينها لدينا إلا ولد وابنتان، أكبرهم عمره أربعة أعوام، فقالت: أفضّلُ هذا السرير على شقة الجامعة، فما كان لدينا خيار إلا الترحيب بها، ولّما جنّ الليل وانتهينا من جلسة ترحيبية إضافية، ذهب كلٌ إلى غرفته، حيث إجتمع كامل أفراد العائلة الخمسه في غرفة نومي واحتلت هي الغرفة الأخرى، وبعد ساعة من

الزمن وإذ بصوت غريب وخشب ينكسر في غرفتها، فهرعت إليها زوجتي مذعورة، فوجدت الضيفة تضحك، وقد علقت في وسط السرير حيث انكسر خشبه وهبط بحمولته، فضحكنا جميعاً وقلنا هذا ما لدينا، وتقبلت الأمر بعد أن أصلحنا ما يمكن إصلاحه.

عندما احتفلنا بها أول مرة لإكرامها، واظهار الكرم العربي كالعادة، قدمنا لها منسفاً أردنياً، فلما شرحنا لها عنه وعن كيفية أكله عندنا، ولّما رأته كومة من الرز مكسوة بقطع كبيرة من اللحم - حيث القطعة الواحدة تكفي انجليزياً يوماً كاملاً - سألت زوجتي كم عدد المدعوين؟، فلما علمت أن لا أحد غيرها استغربت !،لأن العدد لا يتناسب مع الكمية الكبيرة، عندها أدركتُ أننا أحياناً نبالغ بإكرام الضيف، ولو أننا نعود إلى الأصل، اقتصاداً دون بخل لكان أفضل.

وعندما زارت عمان لأول مرة، ورأت القصور الفارهة، المترامية في أطراف عمان بأحجارها البيضاء قالت كلمة لا أنساها، «أنتم تدفنون أموالاً طائلة في الأرض»، طبعاً تقصد تكلفة البيوت الباهظه، مرة أخرى، نعم نحن العرب عندنا إسراف وكثير من التبذير.

ونتيجة الإلحاح المتكرر عليّ للعمل معهم في (مانشستر)، وبالذات في هذه الشركة (شركة بروتيس) واعتذاري المستمر، سألتني عن السبب، فذكرت لها أن أحد الأسباب هو أنني أصغر إخواني سناً، ووالدتي طاعنة

في السن، وواجبي أن أخدمها، وأقدم لها كل ما أستطيع لأننا، نؤمن بأن الجنة تحت أقدام الأمهات، فالتفاني في خدمتها هو من أرقى أنواع العبادات، وطبعاً هي تعرف أنني وزوجتي ملتزمان دينياً، وأظهرت لنا قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير، فما كان جوابها إلا أن قالت: نحن على أتم الاستعداد لاستقدام والدتك لتعيش معك في بريطانيا، وتقدم لها ما تُريد من خدمة، إذا وافقتَ على العمل معنا في الشركة، وحقيقة أسباب اعتذاري عن تلبية طلبهم للعمل في بريطانيا – رغم حُسن تعامل البروفيسورة «آن مسترانس» معي، ورغم الراتب المغري – كان شعوري الداخلي وقناعتي أن بلادنا بحاجة لجهودنا على بساطتها، فإذا آثرت أنا الحياة الهانئة هناك، وآثرغيري ذلك أيضاً، فلمن نترك الأوطـــان؟، ومن الذي سيخدم أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا؟، ناهيك عن اعتقادي اليقيني بقُدسية هذه المنطقة وخصوصيتها، وأن السكن والعمل فيها رباط يؤجر المرء عليه، بهذه النية رفضت الاستجابة لطلبهم، فكافأني الله بما لم أكن أحلم به يوماً، والفضل والحمد له في الأولى والآخرة.

وبعد حضور البروفسورة «آن» إلى الأردن للمرة الثانية، وتأكدت من إصراري على الاعتذارعن العمل معهم، اتفقنا أن أرسل لها مجموعة من خيرة طلابي، الذين درّستهم أو أشرفت على رسائلهم لدرجة الماجستير في الجامعة، ليعملوا أبحاثاً لصالح الشركة مقابل أن تتكفل

الشركة بمتطلبات الجامعة المادية، لدرجة الدكتوراة، وفعلاً هذا ما حصل.

رشحت لها ثلاثة من خيرة من درّستُ من الطلاب، وشهد الله أن معياري في الترشيحات لهذه البعثات اعتمد على الكفاءة والإنجاز العلمي، وحُسن الخُلق، بعيداً عن التصنيفات الضيقة، جغرافياً أو فكرياً، فكانت مقابلتهم الأولى مع البروفسورة في مكتبي في المختبرات في إربد، حيث منحتهم بحكم صلاحياتها قبولات مبدئية في جامعه مانشستر لدرجة الدكتوراة تحت إشرافها، وقد أبدع هؤلاء الفرسان الثلاثة في دراستهم وأبحاثهم، وكانوا على قدر المسؤولية وخير سفراء لبلدهم، وهم ممدوح حراحشة الذي أصبح ولله الحمد بروفسورا في التكنولوجيا الحيوية في جامعات عدّة، وكذلك الدكتور عدنان جرن أستاذ الجراثيم في جامعة آل البيت، و أخيراً الأستاذ الدكتورعلي حجير، حيث عمل محاضراً في الكلية نفسها، بعد حصوله على شهادة الدكتوراه، وعلى شهادة مهمة جداً أخرى وهي (MRCPath.).

وفي زيارة الدكتورة «آن» الثالثة إلى الأردن في بداية التسعينيات، حيث جاءت براً عن طريق سوريا بعد زيارتها لدمشق، وقد استقبلها معي نفر من طلابها في الرمثا، وكان لمدير شرطة الحدود موقف كريم لحُسن استقباله ولطفه وأدبه الجم، ثم جئنا جميعاً إلى إربد، حيث أعددتُ

لها وللمستقبلين غداءً في بيتي، وعندما كنا على مائدة الطعام أبدت إعجابها بدمشق، ثم ببعض الآثار التي رأتها هناك، فطلبت منها أن تشرح لنا المزيد، فسألتني باستغراب ألم ترها وهي قريبة جداً من إربد؟، فقلت لها: لا لم أرها، فسألتني باستغراب أشد: لماذا؟، فقلت لها: ممنوع عليّ دخول سوريا، فقالت بحس الأوروبي الذي يتمتع بحرية منقطعة النظير: لماذا ممنوع؟، فقلت لها – في غمرة ضحك الشباب الموجدين معنا – أنني مصنف كإرهابي أصولي، فسقطت الملعقة من يدها، وسألت مرة أخرى: أأنت إرهابي؟!، فقلت لها: هكذا مصنف، ولست أنا فقط ولكن صديقتك – زوجتي – مصنفة كذلك، فقالت هذا ليس معقولاً، فسألتها ما رأيك أنت بعد معرفتك القريبة بنا أنا وزوجتي، هل لاحظت علينا شيئاً من هذا؟، وهل سمعت منا يوماً أمراً خارج نطاق الاعتدال والمنطقية؟، وهي تكرر في كل مرة (never)، يعني أبداً.

عندها أوضحت لها أن الحكام ظلمة، لا يعدلون ولا يحبون من ينتقدهم، فمعظمهم في واد ومصالح الشعب في واد آخر، المهم عندهم أن يجمعوا ما يحلو لهم من جاه و سلطان ومال، ولو مات الناس جوعاً، ونحن الإخوان المسلمين نذرنا أنفسنا لخدمة دين الله، و تقديم ما نستطيع لمساعدة الآخرين، ونقول الحق ولو غضب الحكام، فما حدث بين الإخوان المسلمين في سوريا وبين الحاكم الظالم هناك في الثمانينيات،

أدى إلى قتلهم أو سجنهم وتشريد من بقي منهم حياً، ومُنع كل متعاطف معهم من الإخوان المسلمين في الأردن، من دخول سوريا، وصنفونا بقائمة الإرهابيين، ولذلك فأنا لم أدخل سوريا منذ نهاية السبعينيات، وأنا مطلوب لهم فلو دخلت لفعلوا بي الأعاجيب، وربما معظم الموسومين بالإرهاب ربما أنهم منه براء، ولكن الإعلام الغربي والشرقي المتأثر باليهود، يُضخمُ مثل هذه الأخبار لجعل الناس يعتبرون أن كل مسلم متدين إرهابياً، فأحسسنا جميعا أنها تألمت لما سمعت وعرفت الكثيرعن الإخوان المسلمين، وعن ظلم الحكام لهم.

الجلسة العائلية

قدر الله لي أن أكون من حجاج قافلة المستشفى الإسلامي لعام ١٩٨٧م، وكان أميرها الأستاذ الفاضل والداعية الكريم داوود قوجق- رحمه الله -، كما ضمت تلك القافلة مجموعة من أهل الخبرة والسابقة، وكان من بينهم نائب الحركة الإسلاميه في البرلمان الأردني الأستاذ المربي شاعر الأقصى يوسف العظم رحمه الله.

كانت الرحلة مبرمجة ومنظمة، بحيث شارك الجميع في الندوات والمحاضرات للقافلة كاملة، كلٌ في مجال اختصاصه، حيث أذكر أن مشاركتي الأولى كانت عن السواك ونظافة الفم، وعندما كان دور الأستاذ يوسف العظم، كانت محاضرته تربوية، فيها مجموعة من النصائح العملية، ومنها أن يفرّغ كل زوج ساعةً من وقته على الأقل في الأسبوع، يجلس فيها إلى زوجته وأولاده، يقرأون ويتذاكرون، ويتحدثون في شؤون الأسرة، والتخطيط للمستقبل، وشدّد علينا بهذه النصيحة قبل فوات الأوان، وقال: فائدتها تظهر بالاستمرار والمداومة والتبكير، أي والأطفال صغار.

وقدر الله لي أن استفدت من هذه النصيحة، فبدأتُ بتطبيقها منذ عُدت من ذلك الحج، وحتى يومنا هذا، فإن كنت غائباً تعقدها زوجتي

مع الأولاد، وإن كنا غائبين في سفر يعقدها الابن الأكبر، وهكذا، واجتهدنا في وضع برنامج لذلك، وكانت ولله الحمد ذات فوائد عظيمة، لا يعرفها إلا الذي جرّبها، واستمر عليها.

نعقدها كل يوم جمعة لمدة تتراوح بين الساعة إلى الساعتين، قُبيل الصلاة، نقرأ فيها سورتي الكهف ويس، والمأثورات، ثمّ تفسيراً لآياتٍ منتقاةٍ، ثم قراءةٌ من كتاب رياض الصالحين، ثم قراءةٌ لأحد الأبناء من كتابٍ مختارٍ، مثل صفات الرسول ﷺ أو كتاب "فنون الذوقيات والإتيكيت الإسلامي" وما شابه ذلك، ثم نسألُ الزوجة عن هموم الأولاد ومشكلاتهم خلال الأسبوع، لنَحُلّها بالتحاور والتشاور بين الجميع، ثم يتبعها أحياناً إعلان عن السماح عن أي خطأٍ ارتُكب خلال الأسبوع إذا ذكره، شريطة عدم العودة إليه، ثم الاطِّلاع على العلامات وبرامج الامتحانات للتعاون في تيسيرها، ثم نختم بالصلاة على رسول الله ﷺ مائة مرة.

وقد لاحظت لذلك فوائد عديدة، منها أن الجميع صغاراً وكباراً حفظوا سورة الكهف ويس والأدعية المأثورة تلقائياً، ثم سمعوا تفسيرات لعدد من سور القرآن الكريم، ثم مجموعةٌ كبيرةٌ من الأحاديث النبوية الشريفة، علاوة على ما نقرأ جميعاً من كتب، كما تعودوا أن لا يخرجوا من البيت إلا وهم على وضوء، مع حفظ أدعية اليوم و الليلة.

والأهم من ذلك التعود على هذه الجلسة، يخفف هموم الزوجة، ويحلُ مشاكل الأولاد أولاً بأول، ثم التعود على الحوار منذ الصغر، وطرح الآراء، والتكلم أمام الآخرين، علاوة على تصحيح المفاهيم الخاطئة، التي يمكن التقاطها من المدرسة أو الشارع، ثم إعطاء الجوائز التشجيعية على التفوق وحفظ القرآن الكريم، بحيث يصبح كل عضو في الأسرة مطَّلعاً على برامج الآخرين لمزيد من التعاون في تنفيذها، ولمزيد من الجذب وتحبيب الأبناء بهذه الجلسة كانت أحياناً تنتهي بغداء شهي أو رحلة ترفيهية إلى مكان يحبونه.

أصبح الأمر من المسلمات عند الأبناء والبنات، أن يستمروا على مثل هذه الجلسة في بيوتهم بعد الزواج والاستقلال، وهذا ما اتفقنا عليه جميعاً، وكم هي فرحتي و سروري باعتباري أباً عندما أزور أحدهم أو إحداهن في بيتها، لأعلم أنهم قد فرغوا لتوهم من جلستهم العائلية، والفرحة الأكبر التي تريح النفس أن أسمع من حفيد أو حفيدة تُذكّر والديها بوقت سورة الكهف، كناية عن الجلسة العائلية.

هذه الفوائد لا تُجنى من جلسة يتيمة أو اثنتين، أو جلسة في الشهر، بل لابد من الاستمرار فيها، والمداومة عليها أسبوعياً، مهما كان عمر الطفل صغيراً، أو عمر الأب كبيراً، فلا بد أن تبدأ، ولا بد من كسر حاجز التردد، ومقارعة الشيطان، والإسراع في الالتزام بها، فأفراد الأسرة جميعاً

بحاجتها، ففوائدها عظيمة للأبناء والآباء والأمهات، على حد سواء.

فقد ثبت أن لا شيء يجلب السعادة في هذه الحياة للوالدين بعد الإيمان، مثل الولد الصالح والبنت الصالحة، كما ثبت من مشاهدات الواقع الكثيرة أن المال والجاه والمنصب أمور زائلة، ولا تجلب سعادة وحدها، فكم من غني ليس بسعيد، وكم من مشهور يحسبه الناس سعيداً فتنتهي حياته بالانتحار، إذاً فما بال الآباء منشغلين عن أولادهم ليلاً ونهاراً، هذا بشركاته وآخر بتجاراته، حتى أصبحت تربية أبنائنا ليست نتاجنا، بل نتاج الخادمات والإنترنت والفضائيات، والحصيلة تراجع يتلوه تراجع مع مزيد من الانفلات والانحلال.

يخبرنا أهل الاختصاص أننا نحصد سلوكاً من أبنائنا في سنيي مراهقتهم، كانعكاس لما زرعناه فيهم في السنوات الست الأولى من حياتهم، فماذا زرع الأب المشغول ليلاً ونهاراً، لجمع المزيد من المال، في نفوس أبنائه حين يُغادرهم في الصباح الباكر، وهم نيام ويعودُ إليهم في ساعة متأخرة وهم نيام أيضا؟، وماذا زرعت الأم المشغولة بعملها ومكياجها وموضاتها، وسلمت الأمر كله للخادمات؟، والنتيجةُ مزيد من الميوعة والفساد الأخلاقي، والعقوق والتفكك الأسري وخراب البيوت، وفي النهاية ندم متأخر، ولات حين مندم.

شاب عربي مسلم هاجر إلى بلاد في أقصى الشرق، قبل أكثر من نصف قرن، حيث كانت تلك البلاد بكراً، ومجال العمل فيها متيسر ومفتوح على مصراعيه، انهمك بالعمل، ثم تزوج، ورُزق بابنتين، كما رُزق مالاً كثيراً، حتى أصبح مليونيراً معروفاً، لكن هذا المال الذي جمعه بكده وعرقه كان يشغله دائماً عن صغيرتيه، وبعد أن تجاوزتا سن البلوغ، تفاجأ والدهما بغيابهما عن البيت، ودُهش لدرجة الصدمة عندما وجدهما قد تركتا رسالة موقعة منهما في البيت، تُفيد بأنهما قررتا ترك البيت إلى الأبد لتعيشا وحدهما بحرية تامة، بعيداً عن والديهما وعلى طريقتهما الخاصة.

وحسب قوانين تلك البلاد، فهذه تُعد حرية شخصية، لذلك لايستطيع أحد - بحكم القانون - إجبارهما على غير ما تريدان، ولكم أن تتصوروا حال هذا الوالد المسكين، وقد سمعتُ مباشرة في إحدى زياراتي الدعوية إلى تلك البلاد، شكواه المريرة التي يقول فيها «ليتني أعود فقيراً كما كنت شريطة ان تعود ابنتاي الي حضني وبيتي».

إذاً الانشغال في جمع المال وترك الأبناء وهم صغار، لا يُفيد بل يعودُ بالحسرة والندامة على الوالدين بسبب ضياع الأبناء، ثم على المجتمع بشكل عام.

أيها الآباء، أيتها الأمهات، استفيدوا من هذه الجلسة غير المكلفة قبل فوات الأوان، وانصحوا لأبنائكم وحذّروهم مما يضرهم، فما أجمل

أن يسمعوا مثلاً النصائح المنسوبة للإمام علي – كرّم الله وجهه – وهم في سن صغيرة لتُساعد في نضجهم المبكر ومنها مثلا:

«كن على حذر من الكريم إذا أهنته، ومن العاقل إذا أحرجته، ومن اللئيم إذا أكرمته، ومن الأحمق إذا مازحته، ومن الفاجر إذا عاشرته، وإني ذقت الطيبات كلها فلم أجد أطيب من العافية، وذقت المرارات كلها فلم أجد أمرّ من الحاجة إلى الناس، ونقلت الحديد والصخر فلم أجد أثقل من الدين، واعلم بأن الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فلا تضجر، فاصبر فكلاهما سينحسر».

فجزى الله أستاذنا الكريم، المربي الفاضل يوسف العظم – رحمه الله – على هذه النصيحة المفيدة، وتغمده بواسع رحمته، ونفعه بأجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وكما توقعت مجلة الأمة عندما أجرت معي مقابلة في بريطانيا ١٩٨٢م، حين سجلتُ براءتي الاختراع الجديدتين للتشخيص، أن يكون لهما مردود عملي تجاري، وفعلاً حصل ذلك، وأنشأتُ في بداية التسعينيات من القرن الماضي مع مجموعة من أهل الاختصاص من العلماء الأردنيين، شركة لإنتاج الكواشف الطبية، معتمدة بشكل رئيس على أبحاث مختصين أردنيين، ومستعملة المواد الخام من الأردن، فكانت الشركه العربية لإنتاج الكواشف الطبية (أرقم) ARCOMEX))، التي تستنبت تكنولوجيا الكواشف الطبية في الأردن.

وكان من أعمدة هذه الشركة والعاملين فيها بصمت وإخلاص وجدّية تامة، الأستاذ الدكتور فاروق قعدان – خريج أرقى الجامعات الأمريكية – صاحب الباع الطويلة والحس الوطني الإسلامي المرهف، المسكون بهموم المسلمين، حيث أبدع وأدار الشركة بحكمة، رغم ما أحاط بها من ظروف صعبة أثناء التأسيس، والعالم العملي الجاد الآخر كان الدكتور أحمد العرجا – رحمه الله رحمة واسعة – الذي أبدع إبداعات لا يعرف قيمتها إلا أهل الاختصاص، استطعنا بفضل الله أن ننتج كواشف طبية عديدة كلٌ في مجال اختصاصه.

هذه الكواشف لها أسرارها العلمية (know how)، تُصنع من مواد أردنية وبأيدي علماء أردنيين، وتُسوّق في الأردن، والعديد من الدول الأجنبية، وبأسعار مذهلة إذا قورنت بما اعتدنا شراءه من الغرب، حتى أنّ البرفسورة (آن مستراتوس) في زيارتها الأخيرة، اطلعت على الشركة ومنتجاتها، وتعجبت كيف أننا استطعنا عمل أحد الكواشف في الأردن بينما فشلوا في ذلك في شركة (بروتيس) البريطانية.

وقد نمت الشركة بسرعة كبيرة، وتفاءلنا بها كثيراً، حيث تكاثر إنتاجها العلمي في التسعينات، لدرجة أن تقدمت مجموعة من المملكة العربية السعودية تابعة لإحدى استثمارات الراجحي، وطلبت منا أن نُقيم مصنعاً تشاركياً مشابهاً في السعودية، رحبنا بذلك، وجهزنا وإياهم الاتفاقية المبدئية، ثم أخذوا عينات عشوائية من المنتجات، وأرسلوها إلى مختبرات عالمية مرجعية لتقييمها، وبعد أن تأكد لديهم أنها ذاتُ مستوى عال، عادوا إلينا فرحين لإكمال الاتفاقية، وللأسف الشديد حُجزت جوازاتهم في المطار من قبل الجهات الأمنية، وطُلب منهم مراجعة دائرة المخابرات العامة في اليوم التالي، وعندما راجعوا الدائرة، أعيدت لهم جوازاتهم وغادروا البلاد، معتذرين عن إتمام الصفقة دون إبداء الأسباب.

والأمر معروف لدينا ومفسر، فنحن الثلاثة، أعمدة الشركة من قيادات جماعة الإخوان المسلمين، والحرب على الإخوان كونية وليست في الأردن فقط، فعلاوة على الحرمان والإقصاء والاستبعاد من المواقع الحساسة، كان لابد أن يُكملوا حربهم الصامتة بتجفيف منابع المال عليهم ومحاربتهم في أرزاقهم، إذاً فكيف يُسمح لهم بالاستثمار والنمو الاقتصادي، فأُممت شركاتهم الاستثمارية في مصر، وضُيق عليهم وحُوصروا في كل مكان، ومع كل هذا لا نقول إلاّ: اللّهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، لأننا مخلصون لأوطاننا بل لأمتنا الإسلامية، نحمل الخير للبشرية، حيثما كنّا وحيثما استطعنا.

كما أننا عانينا محاصرة شديدة من المنافسين الأجانب الذين يتبعون لشركات عالمية كبيرة، يعرفون من أساليب شراء الذمم والرشوة الظاهرة والباطنة ما لا نعرف وما لا نطيق، في ظل قوانين لا تحمي الصناعة الوطنية في الأردن، وفي ضوء ذلك، كانت الشركة في سنواتها الأخيرة لا تكاد تغطي نفقاتها بل تخسر.

وفي ضوء انشغالي الكبير في قيادة جماعة الإخوان المسلمين في الأردن بعد تكليفي بذلك، كان لابد من ترك العمل بالشركة العربية لإنتاج الكواشف الطبية، والتضحية ببعض المكتسبات، لهذا قدمت استقالتي من إدارتها وبعتُ أسهمي بنصف قيمتها في حينه، وكان ذلك

في نهاية التسعينات من القرن الماضي، وهكذا تركتُ أمراً أُحبه، ولطالما حلمتُ به، لأخدم به بلدي وأمتي من خلال تخصصي، ولكن كثيراً ما تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفن.

ورغم الجهود المخلصة الجبارة التي بذلها الأخوان الكريمان الدكتور فاروق قعدان والكتور أحمد العرجا – رحمه الله – إلاّ أن الشركة في الوقت الذي نجحت فيه علمياً نجاحاً باهراً، وزاد إنتاجها زيادة عظيمة وبتكلفة مذهلة، لكنها لم تنجح بتسويق منتجاتها بسبب الحصار الصامت وغير المعلن على أصحابها، ولذلك – وكما علمتُ فيما بعد – قرر الإخوة في مجلس الإدارة (أي بعد أكثر من خمس سنوات من تركي للشركة)، وبالتشاور مع الهيئة العامة للشركة بيعها، وفعلاً بيعت ولكن للأسف بخسارة كبيرة، والخسارة الأكبر هي إجهاض فكرة عظيمة جادة لاستنبات تكنولوجيا الكواشف الطبية في الأردن.

كنا نتوقع لها مستقبلاً زاهراً لأن كل أسباب النجاح كانت متوفرة لها من الناحية العلمية – بشهادة المختصين – ومن ناحية رخص ثمنها لأنها تعتمدُ المواد الأولية المحلية، كانت هذه الشركة يمكن أن توفر مئات الملايين من الدنانير مع الزمن على الأردن، والأهم هو تشجيع أمثالها في ميادين علمية أخرى، ولكن الفساد والفاسدين فوتوا فرصاً كبيرة على البلاد والعباد.

أما على المستوى العملي في مختبراتي الطبية الخاصة، فالالتزام الديني، وحُسن التعامل مع الناس، ومراعاة أحوالهم المادية، والاهتمام البالغ بهم، وفي فحوصاتهم، ثم النصيحة المجانية، التي توفر عليهم الكثير، واستعمال أحسن الطرق العلمية، وتوظيف أفضل الفنيين علماً وأمانة وخُلقاً؛ كلها ساعدت بفضل الله على نجاح متميز لهذا العمل، وفوق ذلك كله – بعد توفيق الله عز وجل – الفوز بثقة الناس وهذا عندي لا يُقدر بثمن.

معاناة صامتة...!!

وعلى صعيد عملي القيادي الدعوي الإخواني، فقد بدأ بسيطاً لكن مبكراً منذ أيام دراستي في السبعينات في الباكستان، ثم تدرّج أكثر وتوسع في سني دراستي في بريطانيا في الثمانينات، كما ذكرتُ في المحطات السابقة، امّا في إدارة التنظيم في الأردن، فقد كان في بداية التسعينات مُركّزاً في مدينة إربد، وبالذات في قيادة شُعبتها مع نفر كريم من إخواني، ثم انتُخبت مراراً لعضوية مجلس شورى جماعة الإخوان المسلمين ممثلاً عن مدينة إربد، وكذلك لعضوية مجلس شورى جبهة العمل الإسلامي في الأردن، ثم مكتبها التنفيذي.

ومن حُسن ظن إخواني بي انتخبتُ عضواً في القيادة العُليا للجماعة «المكتب التنفيذي»، وبقيت أُدفع من إخواني لهذا الموقع في كل مرة دفعاً لأربع دورات متتالية على غير رغبة مني، آخرها موقع نائب المراقب العام (٢٠٠٨-٢٠١٢) والعمل القيادي الدعوي - أعان الله من يُبتلى به - يستهلك جُلّ وقت صاحبه مع شعور دائم بالتقصير، خاصة إذا لم يكن متفرغاً، وقد اجتهدت أن أقدم ما أستطيع من خدمات لدعوتي ووطني، علماً أنني كنت موزعاً بين عملي الخاص في المختبرات الطبية التخصصية في إربد، والذي تراجع نسبياً بسبب انشغالي وغيابي - رغم كثرة وجودة

الطاقم الفني العامل فيه – وبين تلبية الطلب الهائل من المحاضرات العامة في الداخل والخارج في موضوع الأمراض المنقولة جنسياً، وبين العمل الإخواني.

وقد تعلمتُ من إخواني في القيادة الكثير، فهم بين سياسي محنّك، وإداري ناجح، أو مفكر مسكون بهّم البلاد والعباد، كما ترسخت في ذهني صحة المقولة التي تُفيد بأنه «لا يُنجز إلاّ المشغول».

عملي في قيادة جماعة الإخوان المسلمين كان يستهلك الكثيرمن الوقت رغم أني لم أكن متفرغاً له، فكان يستغرق زمنياً قضاء ما معدله ثلاثة أيام أسبوعياً، أمّا همّها فكان يشغل كل تفكيري، ورغم أن إخواني في القيادة كانوا يتفهمون وضعي، فيعذرونني إذا تغيبت، إلا أن الغياب كان لا يُريحني داخلياً، لأن هذا العمل العظيم يحتاجُ كل الوقت وليس فضلته، لهذا فأنا من المقتنعين، بل المنادين بتفرّغ كل القيادة حتى يُعطى الأمرُ حقه.

في صيف عام ١٩٩٤م كنت ازاول عملي بنشاط طوال اليوم، حتى جاءت لحظة كنت منحنياً فيها اسحب عينة دم لطفل، شعرت خلال ثوان وكأن شيئاً ما انقطع في ظهري، فتحاملت على نفسي حتى أنهيت، ثم مشيت بصعوبة إلى مكتبي، حيث غبت جزئياً عن الوجود، وما افقت إلا والطبيب فوق رأسي، وفرغ لتوه من اعطائي إبرة عضلية

لتخفيف الآلام، ثم نقلت إلى البيت للراحة ثم للتصوير، وقد بيّن الرنين المغناطيسي أنني أصبت بإنزلاق غضروفي، وقد أدخلت المستشفى مراراً بسبب آلامه الحادة، وبسبب ما كان يتبعه من تشنجات عضلية في ظهري، مكثت خمسة عشر عاماً على العلاجات والمعالجة الحكمية، حتى بدأت تظهر بعض العلامات والأثار السلبية التي لا تستجيب للعلاج إلا مؤقتاً، عندها أشار علي أحد المختصين بعملية جراحية، وفعلاً أجراها لي عام ٢٠٠٩م في قمة إنشغالي بالعمل الدعوي، ومذ ذاك ولله الحمد كأن شيئا لم يكن، فحمدت الله على ذلك، وندمت على معاناة سنوات طويلة جهلاً وهروباً من الجراحة.

كان الأخوة يعذرونني لكثرة مرضي وأسفاري، لأنني أقود بحكم اختصاصي مشروعاً لوقاية الشباب في الاتحاد العالمي للجمعيات الطبية الإسلامية (FIMA)، الذي أصبح بفضل الله مشروعاً عالمياً، خاصة بعد أن انتشر وتلقفته الأيدي المخلصة الجادة في بلدان العالم المختلفة.

وعلم الله أنني كنت أتحين الفرصة المناسبة للاستقالة من قيادة الجماعة، والتفرغ للأعمال الدعوية العامة الأقرب لتخصصي، حيث كنت أشعر أنني أنجز فيها أكثر وبشكل مرض، بعيداً عن إضاعة الكثير من الوقت في المماحكات التي تحلق الدين أحياناً وتُذهب الأجر، وتُفسد الأخّوة أحياناً أخرى، فقد يتحمس أحدهم لرأي معين، لدرجة التهور

والخندقة التي لا تسمحُ له بسماع وجهة النظر الأخرى، فينسى في دوامة النزق وضيق الصدر والتعجل والشائعات المغرضة الموجهة من الخصوم، ينسى معها بدهيات الأخّوة، فيقع في المحذور، وهو يظن أنه يُحسن صُنعاً.

ورغم حملات التشويه المستمرة عالمياً، والعقبات بل والعُقوبات التي تواجه هذه الجماعة المباركة، إلاّ أن قناعتي اليقينية بنقاء وصفاء وطهر ما تقوم عليه، تزداد يوماً بعد يوم، وأنها تسعى لتطبيق شرع الله كما نزل على قلب محمد ﷺ، بكل طريقة سلمية مشروعة، تُرضي الله تبارك وتعالى، تجمع فيها ولا تُفرق وتحرص على كسب القلوب والعواطف قبل تسجيل المواقف، وأن فيها من الشباب من يُستسقى بهمُ الغمام لطهرهم وإخلاصهم لدينهم ووطنهم، إلاّ أن امتدادها الشعبي الواسع والتساهل أحياناً من بعض الأفراد في تطبيق شروط العضوية، والتغاضي عن بعضهم ما دام يُظهر دعماً لاجتهاد دون آخر، كل ذلك ساعد على وجود من له برنامجه الذاتي فيها، يسعى لتحقيق بعض مصالحه الخاصة من خلال هذه الجماعة المباركة، فكان هذا النفر للأسف ثغرة تسلل منها المشككون وبعض الخصوم، ناهيك عن الأعداء، لينفثوا سمومهم ويشوهوا صورة هذه الجماعة، وهذا خلل داخلي لا يُمكن إنكاره، ولا بد من معالجته بكل الوسائل، داعياً الله تبارك وتعالى لهولاء أن يُخلّصهم

من حظوظ أنفسهم، ويشفيهم مما هم فيه، ويُصلح تصورهم وعملهم، ويُحسن خاتمتهم ويجعلنا وأياهم من عباده المخلصين.

وأخيراً، أحمد الله أن كان لي ما أردت من التحلل من القيادة، رغم عتب الكثيرين من الأخوة الذين لا يرون رأيي، بل كانوا يُلحون عليّ بكل السُبل لأن أكون مراقباً عاماً لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن، فجزاهم الله خيراً على حُسن ظنهم بي، وأرجو الله أن يغفر لي ما لا يعلمون، ويجعلني خيراً مما يظنون، فأنا من النوع الذي لا يُحبُ مثل هذه المسؤولية ويكره الأضواء، ولهذا رفضت أن أكون ناطقاً إعلامياً باسم جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، عندما كنت نائباً للمراقب العام، خاصةً أنه كان من بيننا منّ هو أقدر، وله باع أطول في الموضوع.

ولشدة حرصي على الإخوان وسمعتهم، وإرضاء لضميري، وإحقاقاً للحق حصل ما يلي، عندما تخرج أبني البكر من التوجيهي عام ١٩٩٨م، لم يُسعفه معدله لدراسة الطب تنافسياً (أي عشرين ديناراً تكلفة الساعة الدراسية الواحدة)، ولكوني عضو في مجلس إدارة كلية العلوم في حينها؛ حاولت أن يُعامل كأبناء العاملين، ليفوز بمقعد لكنني لم أستطع، فأضطررت أن يدرس موازياً (أي مائة وخمسين ديناراً تكلفة الساعة الدراسية الواحدة)، وفعلا دفعت رسوم السنة الأولى كاملة على غير قناعة مني، وفي نهاية العام تلقيت هاتفاً من عميد كلية الطب يُفيد

بأن أبني قد تحول للدراسة مجاناً على حساب الديوان الملكي، بفضل الله ثم بفضل جهود فضيلة الشيخ عبدالرحيم العكور، والحقيقة أنني لم استسغ لا الموازي المكلف جداً ولا المجاني، لأنني مقتنع أن حقي يكمن في دراسة إبني تنافسياً في الجامعة، فما كان مني إلا أن حسبت تكاليف دراسة الطب عاديا، وخصمت منه ما دفعته في السنة الأولى.

وقابلت رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور سعد حجازي وهو صديق قديم، وأخبرته بما حصل، وأنني غير مقتنع لا بالمجاني ولا بالموازي، ولذلك أريد أن اعتبر إبني طالباً عادياً وأدفع تكاليف دراسته كاملة للجامعة، فكان بين مصدق ومكذب، إذ كيف تلوح فرصة للدراسة المجانية بشكل كامل، ثم تصر أن تدفع للجامعة ؟!، فما كان منه إلا الشكر والثناء والإطراء، فحررت له شيكاً بالمطلوب بإسم صندوق الطالب الفقير في جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية، وأشهد الله أنني استرحت كثيراً بعد هذا الفعل، وهذا ما يحدث عادة عندما يوافق العمل القول، فالمسلم يجب أن يعمل لإحقاق الحق حيثما كان، ليأخذ كل واحد في هذا الوطن ما له، ويدفع ما عليه، بعيداً عن إنتهاز الفرص المشبوهة إذا لاحت سراً أو علناً، فرسولنا الكريم يقول في الحديث الذي رواه البخاري:» فمَنِ اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ وقَع في الشبهات وقع في الحرام».

وسأبقى على العهد بإذن الله في هذه الدعوة المباركة، خدمة لدين الله في هذا الوطن العزيز وحيثما كنت، فنحن الإخوان المسلمين كما تعلمنا في هذه الدعوة المباركة نحق الحق على أنفسنا، خدمٌ للناس، كل الناس في ما يُرضي الله تبارك وتعالى، مستعدون للتضحية بكل ما نستطيع، دون منّة أو تردد، بصمت وهدوء، بجدية وتفان، فنحن أحوج الناس للأجر والثواب.

أحداث وشائعات...!!

وقد حصل في هذه السنوات الطوال أمور كثيرة، منها الداخلي ومنها الخارجي، ورغم أن مجرّد تذكّر بعضها يُعكر صفوي، إلاّ أنني مضطر لذكرها سرداً دونما أي تفصيل، لأنني لا أعتقد أن أحداً منّا يملك الحقيقة كاملة، فلا يعلمها إلاّ علاّم الغيوب، الذي يعلم السر وأخفى.

فمن إخراج قادة حماس من الأردن عام ١٩٩٩م، ومنعهم من العمل فيه، وما واكب ذلك من ضيق وألم نفسي، حيث مُنع أهل الحق من حقهم وطُردوا من بلدهم، بدل أن يُنصروا ويؤازروا، أُخرجوا من أقرب الناس إليهم، دماً وعقيدة وجغرافيا، ورغم كل ما قامت به القيادة في حينها بالتنسيق مع إخواننا المُبعدين في كل المراحل من سجن الجويدة إلى الدوحة ثم دمشق، إلاّ أننا لم نعدم ممن هم بيننا من تفتقت قريحته عن سيل من الاتهامات بالتواطؤ والتقصير وظلم الأبرياء.

وفي مثل هذه الأجواء تنطلق الشائعات التي ليس لها صلة بالحقيقة لا من قريب ولا من بعيد، خاصة إذا وجدت أجواء محتقنة، ونفوساً فيها كثير من الهوى، ومثل هولاء يجب أن تُصحح مفاهيمهم الإخوانية، فمن بدهيات المسلم أن تكون قضية فلسطين والأقصى وكره اليهود الغزاة، جزءاً لا يتجزأ من عقيدته، أمّا الأخ المسلم فقضية فلسطين عنده فوق

ذلك، قضية مركزية لها الأولوية على غيرها لإعتبارات عديدة.

فإن لم يكن الأخ المسلم مع نفسه وشقه الآخر مع الطائفة المؤمنة المقاومة للاحتلال في فلسطين، التي لا تُؤمن إلا بالحل الإسلامي وتعمل له ليل نهار، فمع من يكون إذن؟، فإن وُجد أخ يفهم الأمرعلى نحوٍ غير هذا، فليُصحح تصوره ويُجدد بيعته، وإلا فإن إيمانه في خطر.

ورغم أنني لم أر يوماً حتى الآن نعُمت فيه الحركة الإسلامية ببحبوحة من العيش، بغير ضغوط وإبعاد وإقصاء رسمي مبرمج على جميع المستويات المحلية والدولية، إلا أن الأزمات الداخلية والخارجية قد اشتدت منذ عام ٢٠٠٥م، حيث فازت حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية فوزاً ساحقاً، مما استنفر العالم علينا، لشعورهم بقرب نهاية ربيبتهم (إسرائيل)، فبدأوا يرمون حماس ويرموننا عن قوس واحدة، وعلى جميع الصُعد، فمن حصار غزة إلى معركة الفرقان في نهاية عام ٢٠٠٨م، وما خلفته من دمارعلى البلاد والعباد، ومن تبعات وواجبات على المسلمين عامة وعلى الإخوان خاصة.

والإنسان منّا ممزق بين شوقه للجهاد ومساعدة إخوانه ورفع الظلم عنهم، وبين برود أصحاب القرار، ومحاولة تحصيل أكبر قدر ممكن من الدعم العملي الرسمي والشعبي لهم، بعيداً عن العواطف الإخوانية المخلصة الملتهبة، التي يشاركهم بها عامة الناس الذين ليس لنا عليهم

سبيل، مثل هذه العواطف غير المنضبطة من هؤلاء، ربما تؤدي أحياناً إلى الفوضى والتهور والتخريب، فتضر أكثر مما تنفع.

أما على الصعيد الداخلي فقد انقلب المزاج العام لكثير من قواعد الإخوان في الأردن، بعد تشكيل الحكومة الأولى في عهد حماس، وأصبحوا على غير المعتاد، يسألون بل يلومون القيادة على تقصيرها، بحجة أن من جاء بعدهم قد سبقهم، ثم تلاها ردة فعل غير مبررة على ما سُمي بورقة البخيت عام ٢٠٠٧م، التي اتُفق عليها بعد تعديلها من قبل مجموعة من علمائنا الأجلاء، ثم تبعتها الانتخابات البلدية التي زُورت جهاراً نهاراً، وذلك باستعمال الجيش بطريقة لم يشهدها الأردن من قبل، مما اضطر الحركة الإسلامية لإعلان انسحابها ظهر يوم الانتخابات، تبعه مؤتمر صحفي يُظهر الأدله على التزوير، الذي اعترفت به الجهات الرسمية فيما بعد. وبعد شهرين من هذا الحدث كان موعد الانتخابات البرلمانية، ومع أن مجلس الشورى كان قد قرر مبكراً المشاركة في هذه الانتخابات، إلاّ أن المكتب التنفيذي أصر على إعادة طرح الموضوع ومناقشته مرة أخرى، في ضوء المستجدات في مجلس الشورى، وفعلاً نوقش الأمر مرة أخرى، وفي ضوء التعهدات العلنية الرسمية من الملك عبد الله شخصياً، ومن رئيس الوزراء في حينها الدكتور معروف البخيت، بنزاهة الانتخابات البرلمانية، أكد المجلس قراره السابق بالمشاركة بشبه الإجماع.

وأذكر أن المراقب العام في حينها (فضيلة الأستاذ سالم الفلاحات) كان من المعارضين للمشاركة، بعد ما رأى المكرالرسمي السابق لكنه خضع لرأي المجموع.

رشحت الحركة الاسلامية مجموعة من خيرة قياداتها للمشاركة لا للمغالبة، حيث توفرت لديهم كل أسباب النجاح، من حيث الخبرة والتاريخ الدعوي والثقل العشائري، جرت الانتخابات النيابية يوم الثلاثاء الموافق ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٧م، وللأسف ورغم كل التعهدات وعلى جميع المستويات، فقد زُورت الانتخابات مرة أخرى، واعترف بعضُ الرسميين الكبار بذلك لاحقاً، خاصةً عندما وجد هؤلاء - الذين اعترفوا- مديراً عاماً للمخابرات في السجن، ليُسندوا له هذا التزوير، بلا تبعات عليهم.

وأنا هنا لا أبرىء المسجون، ولكنني أتهم معظم من سبقوه لنفس المنصب، وكان نجاحاً باهتاً لا يُمثل الحركة الإسلامية لا من قريب ولا من بعيد، ولا أستطيع أن أفهم تناقض أصحاب القرار، عندما أراهم ينقلبون على وعودهم، هذا من ناحية، ومن أخرى يُفشلون من كان رئيساً لمجلس النواب يوماً، وشهد له القاصي والداني والخصم قبل الصديق لحُسن إدارته وبُعد نظره، وبعد حين يرشحونه لرئاسة الوزراء في الأردن، ومما ساعد على هذا الفشل للأسف أمراضنا الداخلية، فمنّا من تولى كِبره واتبع هواه، وجعل قرار القيادة وراء ظهره، وهو يظنُ أنه

يُحسن صُنعاً، ومنّا من تقاعس لحساباته الدنيوية الخاصة، التي لن تشفع له فتُنجيه يوم الحساب.

وقد تزامن ذلك مع رغبة رسمية مكتوبة من قيادة حماس للانفصال عن تنظيم بلاد الشام إلى تنظيم مستقل لأسباب موضوعية منطقية، أقلها سرعة الحركة في اتخاذ قراراتها وتنفيذها، فالقضية عالمية ومستجداتها كثيرة ومتلاحقة لاتحتمل التأخير، وما تحتاجه حماس من مرونة ومقابلات وزيارات دولية شرقاً وغرباً، لا يحتمل تحديدات التنظيم في الأردن، ورغم عدم موافقة مجلس الشورى في الأردن على طلب الانفصال، إلاّ أن قراراً مكتوباً من مكتب الإرشاد قد حسم الموضوع لصالح الانفصال، ولأن هذه المعلومات لايعرفها على حقيقتها إلاّ أعضاء مجلس الشورى، ووصل بعضها إلى القواعد الإخوانية مشوهاً، لذلك كثُرت فيها الإشاعات والأقاويل، وانقلب فيها كثير من الحقائق رأساً على عقب، فسرى في الصف نفسٌ اقليمي كريه، كُلّه أذى، ظهر من خلاله، وكأن بيننا أبطالاً منقذين، يُدافعون عن التلاحم والوحدة، وآخرين همّهم الفصل والطرد والانبطاح وتنفيذ اجندات الخصوم، هذه الإشاعات ظُلم فيها الأبرياء، الذين يحفظون سر الدعوة، لا يُفشون أسرارها، ولا يثأرون لأنفسهم رغم الألم الذي كان يعتصرهم، يتجرعون مرارة ظُلم بعض إخوانهم لكن بصمت الصابر المحتسب، وصدق الشاعر طرفة بن العبد حين قال:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على المرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهنّد

وتمضي الأيام فتتجذر المشكلة، والمصيبة أن بعض آثار هذا النفس البغيض تظهر عند كل محطة إنتخابية داخلية أو خارجية، لذلك لابد من العمل الجاد المخلص للتخلص منه ومن آثاره الهدّامة.

كل الذي سبق من الممارسات الرسمية الظالمة، من تزوير للانتخابات وغيرها الكثير، كانت سبباً في زيادة نقمة القواعد الإخوانية على قياداتهم، فالقواعد الشبابية محبطة أصلاً، مما يجري في فلسطين من محاصرة حكومة حماس، وهنا في الأردن حيث الاستهداف الواضح والظلم البيّن الواقع على جماعة الإخوان المسلمين، مع شيء من الهوى عند البعض، كل هذا زاد الطين بلّة، وسبب حل مجلس الشورى في حينه وتكليف المكتب التنفيذي لتسير الأمور، وإجراء انتخابات داخلية لمجلس جديد، وهذا أوصلنا إلى مشكلة شائكة جديدة بعد انفصال حماس، هذه المشكلة تتمثل في توزيع مقاعد مجلس الشورى خاصة على المناطق المشتركة بين التنظيمين والتي لم يُحسم أمرها بعد.

مرة أخرى كثُرت الاشاعات وزاد عدد الأبطال وكثُر المظلومون، والاتهامات جاهزة فمن طرد قادة حماس من الأردن، إلى فصلهم من التنظيم، إلى حرمانهم من مقاعدهم في مجلس الشورى، حيث وجد خصومنا مادة دسمة لصياغة شائعاتهم بطريقة ذكية، انطلت على الكثيرين

منا، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التوبة: ٤٧)

هذه بعض الأمور التي حدثت، اجتهدت أن أكون موضوعياً في ذكرها، كما اجتهدت أثناءها أن أكون وسطياً، مُجمّعاً لا مُفرّقاً، غاظاً الطرف عن كثير مما لم يعجبني، ضاغطاً على أعصابي طمعاً بالأجر والثواب. وأكرر هنا مرة أخرى ما سبق ذكره، فإن كامل الحقيقة ليست عند أحد بعينه، فمن عرف جزءاً فاتته أجزاء، رغم أن الكل ينشدها ويبحث عنها، لذلك هنيئاً لمن يملك نفسه ويتأنى حتى لا يظلم دون أن يقصد.

على أي حال فالإخوان المسلمون بشر، يخطئون ويصيبون، لكنهم ولله الحمد وقّافون عند الحق إذا استبان لهم، ورغم كل الذي ذكرت من أمراض داخلية، فلو وجدت على الأرض خيراً منهم وأكثر صواباً وقرباً وعملاً بالإسلام الشامل الكامل، لما ترددت لحظة في تركهم، لكنني أشهد أني ما عرفت من خير، إلا والغالبية العظمى من الإخوان يعملون به ويدعون له، وما عرفتُ من شيءٍ يُغضب الله تبارك وتعالى ويُخالف الإسلام إلا حاربوه، وصدق فيهم قول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله حين كتب عام ١٩٥٤م «أما الإخوان فقد أثبتت الأيام أنهم صفوة المسلمين في هذا العصر، وأنهم كالذهب المصفَّى لا تزيده النار إلا صفاءً».

المشاركة اكثر إيجابية.!!

بداية، أود التأكيد على أن المشاركة السياسية هي الأصل المقر في نهج الحركة الإسلامية، والمقاطعة هي الاستثناء عندما تدعو إليها ظروف طارئة غير طبيعية، وفي هذه الحالة تتم دراستها ومناقشتها، ثم التصويت عليها، وأحياناً إجراء استفتاء عليها في قواعد الحركة الإسلامية، حسب الإجراءات القانونية المتبعة داخل الأطر القيادية في الجماعة، وقد كنت ومازلت، ورغم كل الأسباب التي يسوقها الداعون للمقاطعة، ويحاولون من خلالها تسويغ هذا الخيار احتجاجاً على الظلم الرسمي ومحاولات الإقصاء والتزوير، وتفصيل قانون انتخابات نيابية خاص بالحالة الأردنية لتحجيم الحركة الإسلامية، كنت أجدُ نفسي مقتنعاً بالمشاركة، رافضاً لمنهج المقاطعة، وصحيح أن كليهما فعل سياسي، لكنني أعتقد بأن إيجابيات المشاركة أكبر، فنحن إيجابيون دائماً وأبداً، نستثمر القليل بالعمل والتفاعل والاحتكاك والصبر، وحسن التصرف والوقوف على أرض الواقع، الذي يولّد الخبرة والمراس، هذا القليل يُصبح مع الزمن كثيراً بإذن الله، فيزداد الخير وينتشر، ويضمر الشر وينحسر، فالإخوان المسلمون خلقوا ليعملوا ويباشروا خدمة الناس

بأيديهم، ويحاولون تغيير المنكر بكل الطرق المشروعة حسب اجتهادهم، لا بالابتعاد والانتقاد والتنظير أحياناً، وإنما بالمخالطة والمشاركة والنزول إلى الميدان والتحمل وإيجاد المثال العملي الحي.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «اَلْمُؤْمِنُ اَلَّذِي يُخَالِطُ اَلنَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ اَلَّذِي لا يُخَالِطُ اَلنَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"، نعم مخالطة الناس فيها بعض الشقاء والعناء، والنكد والضيق، ولكن على الداعية أن يصبر على ما يقع عليه منهم من أذى، وأن يحتسب الأجر في ذلك على الله، ولا مخرج من هذا إلا بالتغاضي والحلم، ألا ترى أن الله تعإلى قد عاتب (بل عاقب) نبيه يونس-عليه الصلاة والسلام- لما ذهب مغاضباً مغتاظاً من قومه، فقال تعالى:﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء٨٧)، فالأمر ليس باختيار الداعية أن يترك القوم وحالهم، بل الصبر على الناس وتحمل الأذى الصادر منهم، من الأمور الواجبة التي لا مناص من حملها والقيام بها، والعاقبة دائماً وأبداً للمتقين، وإنما هو ابتلاء وامتحان يجريه الله تعالى على الدعاة والعلماء؛ ليميز الصادق الصابر المحتسب، من النزق المتعجل الطائش.

وربما خير مثال معاصر، هو فعل الإخوان المسلمين في مصر، حيث المشاركة دائماً، رغم بلطجية الحكومة وما يحملون من سيوف

وأدوات إجرامية للترويع والتخويف، ورغم التزوير الفاضح والعربدة الرسمية واعتقال الأحباب والأنصار وتخويف الناس، إلاّ أن الإخوان كانوا يصرون على المشاركة ولو لم ينجح منهم أحد، وفعلاً حصل مرة أن رُسّبوا جميعاً، لكنهم اقاموا الحجة على خصومهم الذين زوروا إرادة الشعب، وقمعوا الحريات وصادروا الحقوق في وضح النهار وأمام الرأي العام العالمي.

وقد سمعت هذا شخصياً من فم الشهيد الدكتور محمد مرسي – رحمه الله – في منتصف عام ٢٠٠٣م، يوم كان نائباً بالبرلمان المصري، حيث كنا في الجزائر في جنازة الداعية محفوظ النحناح – رحمه الله – قال: ظُلمنا ظلماً شديداً في الإنتخابات البرلمانية الأخيرة في مصر، لدرجة أنهم اعتقلوا يوم الإنتخابات كل من كان حولي من الشباب في دائرتي الإنتخابية ؛حتى أبنائي، فلم يبقى معي إلا زوجتي، ومع هذا صبرنا وشاركنا.

شارك الإخوان وصبروا، ونشروا دعوتهم بكل الطرق المتاحة، دخلوا كل بيت، وسمع بهم وبدعوتهم القاصي والداني من خلال مهرجاناتهم وحركتهم الدؤوبة، فكان لهم ما كان من رصيد شعبي وسمعة عالمية وخبرة ممتدة وتوفيق قلّ نظيره، ظهر بعضه في الانتخابات الرئاسية ومجلس الشعب التي حصلت بعد الثورة.

ومع أن المقاطعة فعل اجتهادي، إلا أنني لا أجد أن الأمور تستوي مع التربية الإخوانية، فأن يكون الناس منشغلين في الانتخابات في مجالسهم ودواوينهم ومهرجاناتهم تحضيراً للانتخابات، الكل يتحرك ويعمل كخلية النحل، والإخوان في واد آخر، كأنهم لا دخل لهم في ما يهم الناس ويشغل بالهم، فإذا لم تكن هذه عُزلة طوعية عن الناس، فما هي إذن؟، والناس لا يُراهن عليهم، فهم بطبيعة تكوينهم العشائري وحاجاتهم اليومية ومتطلبات معيشتهم الملحّة، ينسون كل تضحية لأجل الصالح العام، وفي المقابل يفكر الإخوان ومعهم بعض الناس ببرامج موازية كبديل للمشاركة ولكن وسط زحمة الأحداث في المنطقة وتجددها، سرعان ما تذهب أدراج الرياح ولا يُطبق منها شيء، وبالتالي لا كنا في هذه ولا في تلك.

هذا الفعل الاختياري -رغم أنه احتجاج- إلاّ أنه عين ما يريده الخصوم الفاسدون الذين لهم كل المصلحة في ابتعاد الحركة الإسلامية ومقاطعتها، ولذلك لا ينبغي ترك الساحة لأهل الأهواء والشهوات الفاسدين المفسدين، يلعبون بدين الناس وأعراضهم وأموالهم كيفما شاءوا، بل لا بد من المزاحمة ونشر النور، ودعوة الناس إلى الحق مهما بلغت الحال من السوء، فالعاقبة دائماً للمتقين الصابرين المثابرين.

ولا أجد مسوغاً يُقنعني أن نبقى في دائرة اتهام المجتمع بالفساد

والانحلال، ونحن في معزل عن السعي في إصلاحه ونشر الحق فيه، من خلال الحوار والمشاركة في كل شيء رسمي وشعبي، جنباً إلى جنب، لأن مجتمعنا ما زال يقبل الصلاح والإصلاح، والخير فيه كثير ولله الحمد، والشر والفساد وإن كان له أتباع ودعاة، لكنه كالزبد سرعان ما يذهب جفاء، تحت وقع عمل المخلصين في الميدان، وأما ما ينفع الناس فإنه يمكث في الأرض، والأيام دول، ولن يبقى إلا ما أريد به وجه الله تعالى.

ومهما كانت أسباب المقاطعة وجيهة، إلا أنها تنتهي بابتعاد المخلصين عن المواقع المهمة، وبالتالي سيحل غيرهم مكانهم، لأن الطبيعة لا تقبل الفراغ، فإن كانوا أقل أمانة وكفاءة من المقاطعين، نكون قد ساعدنا – دون أن نقصد – على نشر الفساد وتجذيره وتكثير المفسدين في هذا المجتمع الصابر.

ونحن الإخوان المسلمين بطبيعة تربيتنا الإسلامية، ومعتقداتنا التنظيمية حركة سلمية، لا نؤمن بالانقلابات العسكرية، ولا بالاغتيالات السياسية للمعارضين، ولا بأي شكل من أشكال العنف، ونريد في الوقت نفسه أن نوصل الخير إلى أهلنا ومجتمعنا، بل إلى البشرية جمعاء، نحق الحق ونساعد عليه، ننشر العدل ولو على أنفسنا، نعدّل القوانين لتحل المؤهلات والكفاءة مكان المحسوبية والواسطة، ليأخذ كل ذي حق حقه، كيف سيتأتى هذا، بعيداً عن المشاركة الهادئة الهادفة، التي

تجعلنا موجودين في كل مكان وفي كل دائرة، بنفسية الذي يخدم إنسانه ودينه وبلده، لا بنفسية المغالب المستعلي المستعجل، الذي يُسابق الزمن ليحتل أماكن الناس بغير حق، بحجة أنه يريد أن يُقيم حكم الله في الأرض، ظاناً أنه المسلم الوحيد المكلف بهذا، ما أجمل أن يصبح هذا قدوة لمن حوله، وظيفته إحسان عمله وإقناع من حوله أنهم مكلفون مثله بنشر الخير وتطبيقه.

وإذا نسي الناس، فنحن الإخوان يجب أن لا ننسى إطلاقاً أن المطلوب منا هو السير على الطريق الصحيح القويم، والثبات عليه، وتحمل تبعاته، والبذل في سبيله، ولسنا مسؤولين عن النتيجة مهما كانت إذا بذلنا وسعنا بالطريقة الصحيحة، فهذا النَّبِيُّ ﷺ يقول: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ....» (رواه البخاري)، فهل النبي الذي لم يمر معه أحداً لم يقم بواجبه؟!، أبداً، بذل كل ما في وسعه، فاستحق حب الله ورضوانه.

والمصطلح الجديد القديم الذي انتشر هذه الأيام «الدولة العميقة» المتجذرة بالفساد، لا تقبل إلا من شابهها، ولا تتعاون إلاّ مع من سارعلى دربها فساداً وإفساداً، مثل هذه الدولة العميقة كيف لنا أن نجابهها إذا لم نشارك بها بهدوء، ونتكاثر فيها شيئاً فشيئاً، بحيث نكون مع المخلصين

الكثر من غير الإخوان - مع مرور الزمن - في كل دائرة، من أبسط الوظائف إلى أرقاها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، عندها سيجد من يُبتلي من الصالحين بموقع متقدم في المسئولية، سيجد منّ يتعاون معه على الخير لمصلحة البلاد والعباد.

أعتقد أن زمن المعجزات قد ولّى إلى غير رجعة، لأن المعجزة لا تجري إلا على يد نبي، والله تبارك وتعالى ربط في سننه الكونية النتائج بأسبابها، فلا يحلمنّ أحد أن يُصبح يوماً وهو مستلق على أريكته وإذا هو في مجتمع «المدينة الفاضلة»، تُطبق فيه كل أحكام الإسلام الحنيف، هذا الحُلم لن يأتي إلاّ بالمخالطة والعمل الهادىء المستمر الذي يتّبع الأسلوب الرباني العملي الأمثل، الذي يكسب القلوب قبل تسجيل المواقف، بحُسن الخلق والواقعية ولطف التعامل وسعة الصدر والتأني والصبر، والحلم وخدمة الناس وقول الحق والثبات عليه، والعمل الجماعي المتواصل، وإيجاد البدائل العملية والأمثلة الحية في الميدان لتكون أمام الناس وقدوة لهم.

الالتزام بالموعد عبادة

في شتاء عام ٢٠١١م كنت أنفذ دورة لإعداد المحاضرين في مشروع وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً والإيدز، في نادي سحاب الثقافي جنوبي عمان، وكان يرافقني فيها المسؤول الإعلامي في مشروع وقاية الشباب الدكتورعصام طراد، وهو أحد كرام الإخوان المسلمين في الأردن، وفي أحد أيام الدورة وفي موعدها اليومي تقريباً، جاء طلب للمركز العام للجماعة في عمان من الديوان الملكي، مفاده أن جلالة الملك عبد الله الثاني يرغب في الاجتماع بأعضاء المكتب التنفيذي لجماعة الإخوان المسلمين، برئاسة فضيلة المراقب العام الدكتور همام سعيد وأعضاء المكتب التنفيذي مع الدكتور عبداللطيف عربيات – رحمه الله – والأخ الكريم حمزه منصور، وكنت من المطلوبين بالاسم، ولتناول طعام الغداء على مائدته، وذلك للتباحث معهم في موضوع الحراك الشعبي في الشارع الأردني، ومطالب الحركة الإسلامية في الأردن، للوصول إلى الشكل الأسلم الذي تتحقق فيه جملة من المطالب الإصلاحية الضرورية، التي تفيد البلاد والعباد والنظام على حد سواء، سيما وأن الحركة الإسلامية في الأردن قد تبنت شعار «إصلاح النظام» وليس اسقاطه.

ولاشك أن مثل هذا اللقاء مهم جداً ليسمع كل من الآخر مباشرة،

دونما وسيط، لأن من أهم الامور التي نعاني منها في الأردن تتمثل بفقدان الثقة بالآخر، وذلك لأسباب عدة ربما من أهمها الوسطاء الذين لا يُحسنون النقل.

والموضوع الذي إريد إيصاله للقارىء هنا ليس عن الإصلاح والحراك الشعبي، ولكن عن أهمية الالتزام بالموعد، فعندما اتذكر الصفات الشخصية الإيجابية التي استحكمت في نفسي بشكل تلقائي، فلا أجد إلاّ حُب الإلتزام بالموعد ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وهذه الصفة مُكلفة جداً لمن يُحافظ عليها، لأن السواد الأعظم من الناس في بلادنا العربية والإسلامية لا يلتزمون، يضيعُ الوقت ويُهدر بسبب التأخر عن المواعيد، لأسباب تافهة أحياناً، وكنت وما زلت أشدد على من يُريد أن يحضر أي دورة عندي، أن يلتزم بالمواعيد المدرجة في البرنامج، حتى أنني عندما كنت أستاذاً في جامعة اليرموك، كنت لا أبدأ حصتي إلاّ على الوقت تماماً حتى لو جئت مبكراً، وكنت أغلق باب القاعة عندما أبدأ حتى تعوّد الطلاب ذلك، وأصبح عُرفاً لا يُناقش فيه أحد، لدرجة أن أحد الإخوة من الخليج قال لي يوماً مازحاً وذلك أثناء الدراسة في بريطانيا: هل أنت بريطاني؟ فقلت: لا ببساطة أنا مسلم.

فعندما طلب مني فضيلة المراقب العام الذهاب بمعيته لمقابلة جلالة الملك، اعتذرت بلطف بسبب ارتباطي المسبق مع أهل منطقة سحاب في

نفس الوقت، فاستهجن بعض الحضور ذلك، سببٌ ظاهره بسيط لكنه يعني لي الشيء الكثير، وتناولت مع صاحبي رغيفاً جافاً مع الفلافل، في المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين في عمان، ثم توجهنا نحو موعدنا والتزمنا به، ولم أخبر المشاركين في الدورة بالأمر،حتى جاء يوم تخريج هؤلاء المتدربين والمتدربات، فطلب أهل المنطقة أن يكون الاحتفال برعاية معالي الأخ الدكتورعبد اللطيف عربيات -رحمه الله-، رئيس جمعية العفاف الخيرية - شريكنا في مشروع وقاية الشباب في الأردن -، وعندما ذهبوا إليه وطلبوا منه رعاية الحفل أخبرهم بما حصل، فأحدث ذلك عندهم تفاعلاً إيجابياً كبيراً، لدرجة أنهم أصرّوا علينا أن يكرموا كل الحاضرين يوم التخرج بعشاء في مضاربهم وبالذات في بيت نائبهم المحترم، كرماً منهم وتكريماً لمن كرّمهم ولم يُهمل موعدهم وقدّمهم على أمر مهم، وتعويضاً عن رغيف الفلافل بعشاء رسمي شهيّ، ومن شدة تأثرالأخ الدكتورعصام طراد بالموقف، استأذنني أن يكتب هذا في مذكراته ويُخبر الإخوة بهذا الموقف الدعوي، ليكون درساً عملياً للجميع في الالتزام بالموعد، فمن ترك شيئاً لله عوضه خيراً منه، فالالتزام بالموعد عبادة لا بد من تأديتها، لأنها تعني الكثير إرضاءً لله أولاً، ثم احتراماً للوقت واحتراماً للطرف الآخر من الناس، ولابد من أن يكون المسلم عامةً، والاخ المسلم خاصة قدوة لغيره.

والله سبحانه وتعالى مدح نبياً كريماً بالصدق في الوعد، والالتزام به، لأنه لم يقطع وعداً إلاّ أوفى به فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ (مريم:٥٤).

كما ذكر لنا رسول الله ﷺ، بأن عدم الالتزام بالموعد من علامات النفاق، حيث قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(البخاري).

فكن وفيّاً بالعهد والكلمة والوعد، ولا تُخلف مهما كانت الظروف، حتى لو كان الموعد بينك وبين أقرب الناس إليك، ويشهد الله كم كنت أحزن بصمت عندما كنّا نتأخر على إخواننا في مواعيد اللقاءات المختلفة، لأن من يكون في القيادة، لا بد أن يكون قدوة لإخوانه في كل شيء.

شيخ يشفعُ لقسيس

في إحدى الليالي الماطرة وفي ساعة متأخرة نسبياً من الليل، رنّ جرس الهاتف برقم غريب لا أعرفه، فلما سلمتُ، رد عليّ الطرف الآخر بسلام العارف الذي بيني وبينه علاقة متينة، ولكنني في تلك اللحظة لم أميز صوته جيداً، حتى عرفته وإذا به أحد القساوسة الذي تربطني به علاقة طيبة، لشدة أدبه ولطفه بالتعامل وواقعيته، رحبتُ به بحرارة، ولكن كان يشغل جزءاً من ذهني تساؤل صامت، ماذا يريد في هذه الساعة المتأخرة؟، فاعتذر بشدة لإزعاجي، وقال بأدب: لولا الحاجة وضيق الوقت لأخرتُ الموضوع، فقلت له لا عليك، أهلاً بك ولكنك أشغلت بالي ما الأمر أيها القسيس المحترم؟، فقال: ابني الأكبر ظُلم في الجامعة، وعُومل معاملة غير عادلة وأُخذ بجريرة غيره، وشرح لي القصة كاملة كما سمعها من ابنه، شرحها بصوت لا يخلو من نغمة الأب المتألم المتضرر والمتّحرق على مصير ابنه، فسألته وما المطلوب مني؟، سيما وأنني لا أعرف أحداً من أطراف المشكلة ولستُ مسؤولاً في الجامعة، فقال بلغة الواثق: حلّها كله عندك، يا إلهي عندي كيف؟!.

فقال أن تُكلّم رئيس الجامعة صباحاً ولن يرد طلبك، فضحكت من داخلي لسبب هو لايعرفه، يتعلق برئيس الجامعة نفسه وعلاقته

بالإسلاميين، فقلت له أيها القسيس المحترم: أنت تعرف أنني من الإخوان المسلمين، فقاطعني قائلاً: ولهذا اتصلتُ بك، ثم أكملت حديثي قائلاً: وأنت تعرف من هو الرئيس، فأنا في عالم وهو في عالم آخر، ولكنني أعدك أن أبذل ما بوسعي صباحاً، فإن نجحتُ فهذا توفيق من الله، وإن لم أوفق فأرجو أن تعذرني، وغداً إن شاء الله سأكّلمك بما سيحصل، فقال هذا ما أريدُ، لأنني أرى النتيجة رأي العين. يا إلهي كلامه هذا زاد في حيرتي وتركني مشغولاً معظم الليل به وبابنه وأطراف المشكلة، فدعوت الله أن ييسر الخير حيثما كان، وعقدتُ العزم على مخاطبة الرئيس صباحاً رغم شكوكي بتجاوبه.

هاتفت الرئيس صباحاً، وبعد تحيته والسلام عليه، وجدته هاشاً باشاً مرحّباً أكثر من العادي، فقلت له "شيخ يشفع لقسيس" فضحك وقال: هذه بحاجة إلى تفسير يا دكتور عبد الحميد، فقلت له إنك تعلم أنني من الإخوان المسلمين، وقد استجار بي ليلاً القس فلان وهو يعلم من أنا، ولديه مظلمة عندك، فأرجو إنصاف ابنه إن كان مظلوماً، وشرحت له القصة كما سمعتها من القسيس ليلاً، فقال: ما أجمل هذه اللفتة الطيبة أن يتوسط شيخ لقسيس، هذه الحالة نُحسد عليها في الأردن، وئآم وأمن وتعايش ووحدة وطنية قلّ نظيرها، وإكراما لهذه المبادرة منك وتشجيعاً لأمثالها فإنني سأعطيها أولوية على غيرها، وأعدك بإنصافه، وفعلاً لم

يأت مساء اليوم نفسه، إلاّ وقد استبانت الأمور، وأُنصف القسيس وابنه وعاد الحق لأصحابه بفضل من الله وتوفيق.

أردت من هذه القصة تأكيد بعض الأمور والتذكير بها، نعم نعيش في الأردن بوحدة وطنية وأمن ووئام وتعايش وكثير من الاستقرار وهامش من الحرية، يحسدنا الكثيرون عليها، ولا يعرف ما عندنا من خير إلاّ من عرف ورأى ما عند غيرنا من الدول القريبة والبعيدة، صحيح أننا نبحث دائماً عن الأحسن، ولكننا لا ننكر الموجود من خير، كما لا ننكر أننا نعاني كغيرنا في الوقت نفسه من فساد ومفسدين، نهبوا الكثير من الأموال العامة، ولولا هذا النفر الفاسد لكانت الأردن أيقونة الشرق الأوسط رغم قلة مواردها.

الأمر الآخر اعتقادي بأن عند الناس في هذا البلد الطيب خيرٌ كثيرٌ، كل الناس وليس فئة دون غيرها، فإن في كل شخص مزية بل مزايا، وإن الله سبحانه أعدل من أن يخلق شخصاً ما دون أن يسلحه بمواهب جليلة ومشاعر إيجابية، والعبرة بحُسن الاهتداء إلى هذه المزايا واستخراجها والانتفاع بها.

المهم كيف نفتح مستقبلات نفوسهم ونتفاعل معها، لكي نستخرج ما فيها من خير، هل بالاستعلائية والعبوس والفوقية والاعتقاد أن الخير عندنا دون غيرنا؟، أم التعامل مع الناس بانطباعات سلبية منقولة من

الغير، وقرارات مسبقة؟، أم التعامل معهم بالحُسنى وقول التي هي أحسن، ومقابلة الآخرين بالابتسامة والكلمة الطيبة، لا شك أن الجواب واضح، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، وكما أن لكل قفل مفتاحه، فلكل نفس أيضاً مفتاحها؟، أما المفتاح الرئيس (الماستر) الذي يفتح كل النفوس فهو حسن الخلق، واحترام الآخرين وحبهم والتفاني في خدمتهم وذكر الخيرعندهم والبناء عليه، فإذا ساعدنا غيرنا على الخير وشكرنا فعله وأكبرناه، نكون قد حاصرنا جزءاً من شر نفسه، فيتمدد فيها الخير وينتشر ثم ينحسر فيها الشر ويُحاصر.

إذاً لا بد من الخروج من قوقعة الانطباعات السلبية السابقة ومبادرة الآخرين بالحُسنى، فكم من عاص يبحث بصمت عن من ينقذه ويساعده، وكم من غافل عن الحق والحقيقة كشفت له تقلبات الأحوال عن ما خفي عنه، ينتظرأي مبادرة إيجابية وإذا به مستودع للخير كبير، والنتيجة أنني أعتبر التقصير من طرفنا لا من غيرنا، فلا بد للداعية الناجح من مخالطة الناس في كل مكان وتحت أي ظرف وليس العكس، لا أن ينتظر أن يأتيه الناس، لأنه ليس كعبة يطوف الناس حولها، ولا يوزع جنةً أو ناراً، وليس لديه صكوك للغفران، بل عبد لله تبارك وتعالى، يخاف عذابه ويطمع في جنته، يعد خدمة الناس والسعى في حاجاتهم في

ما يرضيه عبادة متقدمة وطاعة كبرى، والحديث واضح في ذلك «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

والأمر الثالث، هو لماذا اختار هذا القسيس أحد الإخوان المسلمين؟، رغم أن غيره أقرب لرئيس الجامعة منه، هذا يدل على أن الناس يأملون بل وينتظرون منا الكثير، ويعتبروننا ملاذاً لهم، نساعدهم على العدل والإنصاف رشحونا لأمر جلل، فهل نكون على قدر المسؤولية؟، إذا أردنا ذلك فعلاً، فهذا الشرف لايناله إلا الأخ الذي تشبّع بقيم الإسلام قولاً وعملاً، بحيث يترك أثراً صالحاً حيثما حل وارتحل، فقانون الله العمل، فمن أخذ به فقد وضع الله في يده مفاتيح الدنيا.

وإن قانون العمل الثمر، ولا عمل بلا ثمر، وليس الثمر مالاً ولا عقاراً، إنما هو ازدهار للفضيلة، وقوة للحق، وتمكين لكل معاني الخير، ومن غابت عن عينه ثمار عمله، فإن لحصاد الزرع وقتاً لا يعلمه إلا الله، ولكنه لن يخرج من الدنيا إلا وقد كشف الله له عما عمل، ويُريه ثمار ما عمل، ويعلم أن شآبيب الرحمة تتنزل على العاملين في ميادينهم، قبل أن تتنزل على العاكفين في مساجدهم، وإن الذي ينهض للعمل مع المجتمع، فإنما توضع في يده باسم الله مفاتيح الدنيا، وسر إدارتها ومفاتيح كنوزها وقصورها وخزائنها وممالكها، فلينظر أحدكم أي أمانة ألقيت بين يديه بهذه المفاتيح؟.

وحب الخير للناس ومساعدتهم وإنصافهم وإشاعة الفضيلة وقيم العدل بينهم، مجلبة لحب الله سبحانه وتعالى، ومدعاة لرحمته وتوفيقه ونصرته، وحاجة الداعية الناجح لذلك ملحة ولابد منها، يتودد إلى الناس وكأنه هو في حاجتهم، ليأخذوا منه الخير ويهتدوا إلى الصلاح وإلى الإيجابية والعمل، هكذا علّمنا الإمام حسن البنا حيث يقول: (ونحب أن يعلم قومنا، وكل المسلمين قومنا، أنهم أحبُ إلينا من أنفسنا، وأنه حبيب إلى هذه النفوس، أن تذهب فداء لعزتهم وكرامتهم إن كان فيها الفداء).

وجوهر دعوتنا مخافة الله في السر والعلن، والإخلاص والصدق والأمانة، وحب الوطن والخير للآخرين، والعدل والتفاني والإيثار والأخوة وحُسن الخُلق، وتقديم المصلحة العامة على الخاصة، بعيداً عن حب الظهور والإعلام والنجومية والأنانية وحب الذات، فإن كنّا فعلاً كذلك فخيراً فعلنا لأنفسنا ولأهلنا ووطننا وأمتنا، وسيوفقنا الله لما يُحب ويرضى، ولو جلب العالم علينا كل ما يملك، بخيله ورجله ورؤوسه النووية، لأننا نتعامل مع قوي عزيز وعليم خبير لا تخفى عليه خافية، وهو على كل شيء قدير.

ابتسامتك وهندامك أيها الداعية !!

في ضحى أحد الأيام، زرتُ جاراً عزيزاً في صيدليتة لأسلّم عليه وأتناول بعض حاجتي من صيدليته، ولمّا دلفت من الباب وإذا بأحد المعارف يجلس عنده، كان هذا الشخص في العقد السادس من العمر، مستدير الوجه بلحية بيضاء، وكنت دائماً أُكنّ له الودّ والاحترام، رغم أنني لا أستريح نفسياً لهندامه، الذي لا يعتني به كما يجب، رغم يُسر حالته المادية.

عندما دخلتُ قابلني جاري الدكتور الصيدلاني هاشاً وباشاً كعادته، فسلمتُ عليه ثم تقدمت مبتسماً ومرحباً لأسلم على الأخ الجالس عنده، لقد بقي جالساً على كرسيه، ولم يمد يده ليُسلم عليّ، وأظهر لي كل العبوس والجفاء والكدر، فدُهشت لتصرفه، وتجمدت الكلمات في فمي ولم انبس ببنت شفة، وساد صمتٌ قاتل لفترة قصيرة من الزمن، حتى هدأت أنفاسي وتمالكت أعصابي، وحوقلت في نفسي، وودّعت جاري العزيز، وعدّت أدراجي إلى مكتبي وأنا حزين، نعم حزين طوال اليوم.

أتساءل بصمت ما فائدة اللحية إذا لم تزد صاحبها قرباً من القلوب؟، بل ما فائدة كل هذا العلم الشرعي الذي اكتسبته وتعلمته في محاضن الدعوة الإسلامية، إذا لم ينعكس عليك حُسناً في الخُلق، وبشاشة في

الوجه؟، أنا أنصح مثل هولاء أن يرحموا دعوتهم ولتسعهم بيوتهم، لأنهم نسوا أبسط حقوق الأخوة، فهم لا يمثلون الدعوة لا من قريب ولا من بعيد، أو أن يتعلموا فن الابتسام وحُسن التعامل مع الغير، قبل ان يضعوا أنفسهم في صف الدعاة.

ابتسامتك هي مرسالك الفطري لقلوب الآخرين، ومن فضل الله علينا أنه يستطيعها الغني والفقير والكبير والصغير، في كل مكان وفي كل زمان، فما بال بعضنا يبخلُ بها رغم مجانيتها، لا تنتزعها منه إلاّ بشق الأنفس، يُغطي أسنانه وكأنها عورة لايجوز كشفها، تراه متجهماً، تقرأ في وجهه عُقد الدنيا ومشاكلها، وكأنه ما سمع قط بقول المصطفى ﷺ «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

ومن بديع صُنع الله أنه خلق الأسنان بلونها الأبيض الناصع، وأمرنا بالحفاظ عليها وعلى بياضها، حتى إذا أُفرج عنها وبانت يُمكن أن يراها الناظر من بعيد، لأن اللون الأبيض يظهر حيثما كان، ولكنه يكون أميز وأوضح إذا كانت الأرضية سوداء، ولهذا فإن ابتسامة الشاب الداعية الملتحي علامة فارقة يراها البعيد والقريب، لأن أكثر لونين بينهما تمايز هما الأبيض والأسود، فإذا اعتاد الشاب على ذلك أصبحت الابتسامة طبعاً، وعُرف بالبسّام، وإن شابت لحيته وطال به العمر.

والأهم من ذلك كله الآثار الكبيرة التي تتركها الابتسامة في من يراها، والمشاعر الإيجابية التي تفجّرها في نفس المتلقي، ورسائل الودّ والحب التي تبعث بها إليه، فما أن يراك مبتسماً له من بعيد، إلاّ ويُقبل عليك متهلل الوجه، منشرح الخاطر، منفرج الأسارير، كأنه يعرفك منذ زمن بعيد، راداً للجميل بما هو أجمل، والبسمة بمثلها، وأكثر الأجر والثواب لمن سبق، ونحن في مجتمعاتنا الإسلامية عامة والعربية خاصة بأمس الحاجة لهذه الآثار الإيجابية، التي تنثر الخير وتنشر المودة والألفة والتعارف في المجتمع.

والابتسامة طاعة لله وعافية لصاحبها، ومن خلالها يستطيع الداعية أن يدخل إلى القلوب دون استئذان، ولذلك قال رسولنا ﷺ: (لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) رواه مسلم، كما أن في الابتسامة علاجاً للأحقاد والعداوة، وفي العبوس والتجهم تعميق لها في النفوس، وصدق سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: «من الدهاء حُسن اللقاء»، فتبسمك في وجه أخيك صدقة، وتواضعك وطلاقة وجهك وتفاؤلك، قد تنتهي بهداية الناس، ومن أسعدُ منك بعدها؟، ألست ممن صنّف نفسه طواعية في ركب الدعاة؟، فما دمت كذلك، فلابد أن تُتقن فنّ الابتسام، وإلاّ فانظر إلى المثل الصيني المعبّر الذي يقول: «من لا يُحسن الابتسامة لايجدرُ به أن يفتح دكانا».

إذا أردت أن تكون داعية، وتدخل في مضمار هذا العمل العظيم، فلابد من أن تكون كيّساً فناناً في العلاقات العامة، وحُسن التعامل مع الآخرين، فلن ينفعك دعوياً كثرة المحفوظات على أهميتها، ولا التفنن والتقعر بالكلام، ولا كثرة المال إن كنت من الأغنياء، فصَالة الحَديد يمكن أن تَصنع الَعضلات ولكنها َلا تَصنع الرِّجال، والصَّالون يمكن أن يَصنع جَمال المَرأة، وَلَكنه بأي حال لا يمكن أن يَصنع أَخْلاقها، ولكن الذي يفعل في النفوس والقلوب فعل السحر، هو ما دلنا عليه ﷺ حين قال: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم بسط الوجه وحُسن الخلق».

فكم من غني انفضّ الناسُ من حوله لسلوكه السيئ، وكم من أب موسر أشبع أولاده فظاظة وسوء معاملة، رغم الأموال التي يُقدمها لهم، وكم من زوجة تركت زوجها لسوء معاملته رغم غناهُ، إن محبة الناس وكسب قلوبهم لا يحتاج إلى المال، وإنما إلى الوجه البشوش المشرق المبتسم الجاذب، الموسر بالأخلاق الحسنة، الصادق بتواضعه وحُسن تعامله، لا المتعالي على الآخرين، المتعامل معهم بفوقية منفرة، تلحظ الغرور في كل حركات، وصدق الشاعر حين قال:

لا خيل عندك تُهديها ولا مالُ فليُسعد النطقُ إن لم تُسعدِ الحالُ

نعم تستطيع أيها الداعية المبتسم أن تستولي على قلوب الناس، بالكلمة الطيبة وبالتأني وحُسن المعاملة، ولين الجانب، فالغلظةُ والتجهم والعبوس والتعالي في التعاطي مع الناس، ليست من الدين في شيء، والمصيبةُ أكبر إن كنت تظنُ أنك بهذا تُحسن صُنعاً فيصدق فيك ما قاله أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه: «قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلان: عَالِمٌ متَهَتِّكٌ، وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ».

والابتسامة سر آسر وسلطان قاهر، ربما أدرك الطفل بفطرته البريئة سحرها، فهو يبثها بين الحين و الآخر، وأمام ابتسامتة هذه ينحني أقسى الناس، وفي مواجهة ابتسامة الصبي يرق أغلظ البشر، فهي المفتاحُ الأولُ لكل القلوب المغلقة إذا كانت صادقة، والابتسامةُ الحقيقية لا يمكنُ تزييفها، فهي كالذهب، عبثاً يُحاول المخادعون تقليده ولكنّ بريقه ليس كأي بريق، وكذلك الابتسامة الصادقة النابعة من القلب، فهي إشراقةُ روح، وإطلالةُ نفس، وصورة فؤاد، وبلسمُ ألم، ودواء حُزن.

الابتسامةُ أقصرُ الطرق إلى القلوب وأقربُ باب إلى النفوس، الابتسامةُ المشرقةُ، أقوى من كل قوانين الجاذبية، جاذبة للقلوب والأرواح، لها سحر خلاّب يأخذ بالألباب، والبسّامون أحسنُ الناس مزاجاً وأهنأهم عيشاً وأطيبهم نفساً، وأنت أيها الأخ الداعية لن تَستَطيع تَغيير خلقتك وشَكلكْ، لَتصبح أجَمّل فِيْ عَيُونّ النَاس، وَلكَنكّ تَستَطيعُ

تَزيين أَخلاقَك وُتجَميَل أدَبكْ وتحسين ابتسامتك لتَصبح أجَمْل مَا رَأت عيُونُ النَاس، فأين أنت من هذا السلاح الدعوي الفعّال؟، فالابتسامةُ لا تكلّفك شيئاً ولكنها تعني لدعوتك الكثير الكثير، وتذكر أنك «إذا ابتسمت أتاك الأصدقاء، وإذا عبست أتتك التجاعيد».

والأمر المهم الآخر الذي لا بد منه لنجاحك في دعوتك هو هندامك الجميل، فحتى تكتمل صورتك جمالاً وابتسامتك إشراقاً لابد من اهتمامك بهندامك، لأنه يزيدُها تأثيراً وجمالاً وفاعلية وتألقا، فالمسلم الحق يعتنى بلباسه وهندامه، تراه أنيق المظهر فى غير مغالاة، يتفقد نفسه قبل خروجه على الناس فليس من الإسلام أن يُهمل الإنسان مظهره، بدعوى الزُهد والتواضع، فرسول الله ﷺ وهو سيدُ الزهّاد والمتواضعين كان يلبسُ اللباس الحسن، ويتجملُ لأهله وأصحابه، ويرى فى هذا الهندام إظهاراً لنعمة الله، كما ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى «إن الله يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

ومن الصفات التي حرص الإسلامُ على تربية المسلم عليها، والداعية بخاصة أن يكون حسن المظهر والمنظر، كأنه شامة بين الناس، متميزاً في هيئته ولباسه وهندامه، أنيق الشكل من غير مغالاة ولا إسراف، ترتاحُ إليه العيون وتأنس به النفوس، وبهذا يكون مرغوباً في الناس، وجديراً بأن يسمعوا منه دعوة الخير ورسالة الإسلام، وعلى هذه

الصفات ينبغي أن تربي الأسرةُ أفرادها، وتبث فيهم معالم الحياة السعيدة المادية منها والمعنوية، الظاهرة منها والباطنة.

وليس من حُسن تصرفك أيها الداعية، أن تخرج وأنت ترتدي اللباس الذي تنام به إلى الشارع، وتقابل به الناس أو تذهب به إلى المسجد، وماذا نقول عن أولئك الذين وصفهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، هذا (البعض) الذي لا يعرف المشطُ إلى لحيته سبيلاً، يتناثر شعرها يميناً وشمالاً، وكأن كل شعرة قد أعلنت الحرب على أختها، ناهيك عن رائحة الفم والعرق اللتان تزكمان الأنوف، فيتأذى الناس من ذلك في لقاءاتهم ومنتدياتهم واجتماعاتهم، فينفروا منه ومن دعوته، وقد روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتانا رسول الله ﷺ زائراً، فرأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال: «أما كان يجدُ هذا ما يغسلُ به ثوبه؟»، فليس المطلوبُ لبس الجديد ولكن لابد من لبس النظيف.

وقد بلغ من اهتمام الإسلام بهندام المسلم وحُسن مظهره أنه أمره بتفقد ملابسه والسعي في إصلاح شأنه، ولو كان في سفر تجنباً للتبذّل في اللباس، وقُبح المظهر في الهيئة، روى أبو داود أن النبي ﷺ قال لأصحابه وكانوا في سفر قادمين على أهليهم وإخوانهم: «إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحبُ الفُحش ولا التفحش».

هذا الدين العظيم، لايصلحُ لكماله وجماله، إلاّ الداعية الملتزم عملياً بأخلاق الإسلام، الداعية الصادق المبتسم، صاحب الهندام النظيف، والقلب الكبير والصدر الواسع، الذي ابتعد عن الهوى والأنا، وحكّم الإسلام في نفسه قبل غيره، مثل هذا نستطيع أن نقول عنه إنه داعية بحق، ولو لم ينطق بكلمة، وترى الناس يقدمونه ويحترمونه ويحبونه ويُجمعون عليه رغم اختلاف مشاربهم، فتعامله وحُسنُ تصرفه خير دعوة.

ويسألونك عن حماس !!

الأردن بلد مبارك يعيش على ثراه شعب كريم، يأبى إلاّ الوقوف مع كل بلد مظلوم وشعب مقهور، فرغم قلة موارده إلاّ أن خيره في كل مكان منكوب، لايتردد في مساعدة الآخرين حيثما كانوا وبما تيسر، فكيف إذا كان المنكوب أخاً وجاراً وشريكاً؟، بل كيف إذا كان المنكوب مقدساً فيه قرآن يُتلى؟، وحُبه فرض لأنه عقيدة ودين في عنق كل مسلم، لاشك أن ما سبق يوجب العمل بكل ما يستطيع المرء من قوة للمساندة والمساعدة، لنصرة بعضنا الذي يعاني ويرزح تحت نير الاحتلال، فإذا حالت الحدود والسدود أن نكون معهم جسدياً، فلا أقل أن ندعمهم مادياً، لهذا كان من أوجب الأعمال أن نناصرهم ونتبرع لايتامهم وارامله‍م، ورغم أن كل من في فلسطين يحتاج للدعم من كافة الطرق، إلاّ أن خياري كان دعم حماس وأهلها والتبرع لهم، لأنها فكرياً امتداد لي وجزء مني، فحبها ودعمها واجب لابد من القيام به، من هنا وبدون طلب أو إعلان تبرعت وتبرع الناس لها من خلالي، فالشعب الأردني كريم بفطرته، ولكنه يبحث عن من يثق به، فلم أردّ أحداً لأن الدال على الخير كفاعله.

من هنا وضعت دائرة المخابرات العامة اسمي تحت المراقبة، فبدأت تسأل جيراني في العمل عني، وتتحرى عن معلومات معينة تخص جمع

المال لدعم (حماس)، ولو سألوني مباشرة لأرحتهم عناء البحث، لأنني مؤمن بصواب العمل ووجوبيته عليّ وعليهم، بما لا يضر مصلحة الأردن، لأنني لا أقبل أن يُزاود عليّ أحد في حب الوطن والمواطن، حيث أنني أُعدّ ذلك عبادة متقدمة، ومع هذا لم يسألوني مباشرة، فطلبوا أحد العاملين معي للدائرة العامة، ورغم حُسن معاملتهم له، إلاّ أن مدار الحديث المباشر وغير المباشر على مدى ثلاث ساعات كان عن الموضوع نفسه، ولمّا لم يجدوا ما يبحثون عنه، حصل أمر غريب وغير سليم بعدها مباشرة، ففي صبيحة يوم عيد العمال، الأول من أيار لعام ٢٠٠٧م، وجدنا أن باب المختبرات الخاصة بي قد فُتح بمهنية عالية، دون أذىً يُذكر، وسُرقت أجهزة الكمبيوتر (فقط حافظات المعلومات)، دون المساس بأي شيء آخر، حيث كان متيسراً أخذ ما هو أثمن من المختبرات، ولكن ابن الحلال قنوع، ولأنهم لم يجدوا شيئاً يُذكر فقد خف السؤال بعدها.

وفي عام ٢٠٠٤ م زرت مدينة مانشستر في بريطانيا ولكن على الخطوط الفرنسية ومعي زوجتي، وكان لابد من تغيير الطائرة في باريس إلى طائرة أخرى لكن على نفس الخطوط الفرنسية، وهذه المرة تأخرت الطائرة لمدة ساعة كاملة، وهذا أمر غير عادي في مطار دولي محترم كمطار باريس الرئيس، ولا أحد من الركاب يعرف السبب، وعندما أقلعت الطائرة اعتذر الطيار من الركاب وقال سبب التأخير هو حفاظ على

سلامتكم، ولما عدنا إلى الأردن سألني ابني الأكبر هل تأخرت طائرتكم في باريس؟، فقلت نعم تأخرت ساعة كاملة، فقال اتصل بي أحد ضباط المخابرات وسألني هل والداك في فرنسا؟، قلت: لا في بريطانيا فقال: هم في فرنسا لأن المخابرات الفرنسية قد سألت الدائرة العامة عنهم لتتأكد أنهم من حماس أم لا؟، والدائرة بدورها سألتنا هنا في إربد، والجواب أن الزوج من قيادات الإخوان المسلمين في الأردن، ولكن لانعرف توجه الزوجة على وجه الدقة، علما أننا عندما وصلنا مانشستر وجدنا آثار التفتيش في حقائبنا، ولم يمسسنا سوء بفضل الله.

وعندما أصدرت كتابي «الميكروبات وكرامات الشهداء» عام ٢٠٠٤م، الذي يُظهر بعضاً من الكرامات التي أعدها الله لمن اختارهم واصطفاهم لهذه المنزلة الرفيعة، وانتشر بين الناس ووزع بكميات كبيرة حيث طُبعت منه أكثر من مائة وخمسين ألف نسخة، وهو يُهدى ولايُباع، وتسابق الناس لحضور محاضراتي عن هذا الموضوع، وتبرع بعدها كثيرون وكثيرات، عندها جاءني تهديد بالملاحقة والقتل من مجهول من خلال البريد الإلكتروني، خاصة أنهم ذكروا بهذا التهديد المكتوب شيئاً مماثلاً عن قيادات بارزة من حماس، عندها أطلعت إخواني في قيادة الجماعة عليه واتفقنا أن نتناسى الأمر، والله خير الحافظين.

وإن نسيت فلا أنسى من المتبرعين اثنين، أحدهما طبيب نصراني من الأردن، معروف بدماثته وحُسن خلقه، ووطنيته وموضوعيته، جاء بمبلغ بسيط، كبير المعنى، كان له أثر بالغ في نفسي، فقلت ما أحسن مكونات هذا الشعب، وما أبرك هذه الأرض، وما أعدل هذه القضية.

أمّا الثاني، فهو محفّز لكنه مبكٍ في الوقت نفسه، حاجّة عجوز في عقدها الثامن من العمر، معروفة بفعل الخير وحبه، تبحث عنه وتباشره، لسانها رطب بذكر الله وأطايب الحديث والدعاء المستمر، تُساعد من تعرف ومن لا تعرف، دموعها كعطائها مدرارة، هذه المحسنة، فرع لأصل كريم، فهي وإن لم تتزوج وتجرب الأمومة الحقة، إلاّ أنها رضعت حب الناس وإيثارهم منذ الصغر وتربت عليه وطبقته كبيرة، حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتها اليومية، كانت تتلقى مساعدة شهرية من صندوق المعونة الوطنية، وهو مبلغ بسيط لايكفي إلاّ للضروريات، ومع هذا كانت تأتي إلى مكتبي نهاية كل شهر بعد استلامها المعونة مباشرة لتتبرع بثلثها، تُقدمها مع وابل من الدعاء والدموع، بقيت هكذا لمدة طويلة.

وفي أحد الأيام وعلى غير الموعد المعتاد، وإذا بها تقرع باب مكتبي وتُسلم عليّ وتتمتم بكلمات لم أتبينها كلها، فهمتُ منها بعضها مثل «لم أستعمل دماغي»، «أوفر لما بعد الموت وهؤلاء يموتون جوعاً»، «هذا ليس سليماً»، رحبت بها وأجلستها في مكتبي ولمحت بيدها مغلفاً يظهر

عليه بعض البلى لقدمه، وعندما التقطت أنفاسها بدأتُ أفهم قصتها، فمنذ عدة سنين كانت توفر قسماً ليس بسيطاً مما يتبقى من معونتها الوطنية كل شهر، حتى إذا توفاها الله، وجد شقيقها الذي تعيش في كنفه، بعضاً من المال بعدها لتغطية نفقات مأتمها، لئلا تُزعجه وتكلفه ما لايُطيق، حتى تجمّع لديها مبلغ كبير، تقول ودموعها تنهمر: «لم أستطع النوم منذ منتصف الليل وأنا أفكر بهؤلاء الأبطال المحاصرين في غزة، الذين لا يلوون على شيء يسدُ رمق أطفالهم ويُعالج جرحاهم»، وتكمل قائلة: «وأنا هنا أهنأ بكل شيء وفوق ذلك أوفر مالاً لما بعد المهات، لا ليس هذا بعدل ولا منطق، خذ هذا المغلف الذي لا أدري كم يحوي من المال وأوصله لمستحقيه من هؤلاء، علّ الله يتقبلنا ويرحمنا».

تناولت المغلف منها وأنا لا أعرف ما أقول لأنني كدتُ أختنق بعبراتي الصامتة، إعجاباً بفعل هذه الحاجة العجوز وتقديراً أن تمالكتُ نفسي، ناديت بعضاً من الموظفين عندي، وأحصينا محتويات المغلف المبارك، وقصصت عليهم الخبر، وطلبتُ منهم تصوير هذه العجوز وهي تُسلمني المغلف.

هنيئاً لهذه النفس الرضية الطيبة، تتبرع بكل مالها لفلسطين والمنافحين عنها، تبكي لضيق ذات اليد، وتتمنى الكثير لتتبرع به، وأنا افكر إذا لم يكن هذا هو الدرهم الذي غلب ألف درهم، فما يكون إذن؟.

تأثرت جداً بهذه الحاجّة المباركة، صاحبة الأيادي البيضاء واللسان الرطب بذكر الله، وذكرتُ قصتها لإخواني في قيادة الحركة الإسلامية في أول إجتماع تلاها، فما كان منهم إلاّ أن قرروا أن يتولوا تجهيزها ومراسم دفنها في حينه، إكراماً لها واعترافاً بجميل صنيعها وتقديراً لهذه المعاني السامية، أحسن الله خاتمتنا وخاتمتها، وتقبلنا وإياها بقبول حسن وجمعنا بها في جنات النعيم.

زيارة بعد عشرين عاماً!!!

في بداية عام ٢٠٠٢م زرت بريطانيا برفقة زوجتي قاصدين مدينة مانشستر، لزيارة ابنتي التي كانت ترافق زوجها الذي يدرس هناك، وكانت هذه أول زيارة لي للغرب بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، ولذلك كنا نتوجس من أي حركة انتقامية من طائش، كما كان يحصل في ذلك الوقت في الغرب ضد المسلمين، سيما وأن الجلباب علامة مميزة للمسلمة، وتحسباً لأي طارىء فقد اتفقتُ مع زوجتي على خطوات العمل، لو قدر الله حصول مكروه، خاصة أنني في حينها كنت في القيادة العليا لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن. وهنا لابد من ذكر ما يلي:

أنّ هذه الزيارة جاءت بعد عشرين عاماً على تخرّجي منها، فقبل عقدين من الزمن كنت لا أجد فيها مكاناً للصلاة إلاّ أحياناً في بيت الدرج، وأضطر لقطع مسافات بعيدة لصلاة الجمعة في المسجد، الذي كان لا يمتلىء (مسجد ديسبري الذي سبق ذكره) وقدر الله أن تكون هذه الزيارة في عيد الأضحى، فعندما ذهبت إلى المسجد نفسه لصلاة العيد، وكانت الثلوج قد غطت كل شيء، وجدت الساحة الخارجية قد امتلأت عن بكرة أبيها بالواقفين، فسألتهم لما لايدخلون؟، قالوا لايوجد مكان،

فداخل المسجد مزدحم بالمصلين، ونحن ننتظر أن يفرغوا فيخرجوا لندخل مكانهم، لتُقام الصلاة مرة ثانية بخطيب جديد، وفعلاً هذا ما حصل.

دخلنا وازدحم المسجد مرة أخرى، فلما فرغنا من الصلاة وخرجنا وإذا بالساحة قد امتلأت من جديد، ليدخلوا لصلاة ثالثة، فدهشتُ لهذا المنظر، ووجدت نفسي لا شعورياً أردد «الإسلام قادم، الإسلام قادم، والمسألة مسألة وقت». يا إلهي كيف كنا قبل عشرين عاماً، وكيف أصبحنا الآن، خاصة إذا علمنا حالياً أنّ هناك أكثر من خمسة وخمسين مسجداً ومصلى في تلك المدينة، اللهم لك الحمد، وأنا اقف بالساحة مندهشاً، تتنقل ذاكرتي بين الأمس واليوم، كيف كنا وكيف أصبحنا، أسمع هذا يصيحُ تبرعوا لفقراء فلسطين، وآخر تبرعوا لمشروع كذا في القدس، وكأنني أقف أمام أحد مساجدنا في بلد الحشد والرباط، الأردن العزيز، مع اختلاف في الألوان واللغات، يا إلهي كل هذا في بريطانيا، صدق رسول الله ﷺ حيث قال: «ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين»، ولو أحسن المسلمون تطبيق إسلامهم في الغرب عامة، وفي بريطانيا خاصةً لكان انتشار الإسلام أسرع، لأنه دين الفطرة، يحمل بذرة انتشاره ونفاذيته ذاتياً، خاصةً إلى قلوب الذين جربوا كل شيء بحثاً عن السعادة فلم

يجدوها، وما اكثرهم في الغرب، ولذلك فإن مجرد التزام المسلم حقاً بإسلامه ووسطيته واعتداله ومنطقيته وحبه للآخرين، هو دعوة بحد ذاتها تؤتي أكلها ولو بعد حين.

وعليه، فإنني أنصح كل مسلم عابر أو مقيم أن يحترم ويلتزم قوانين البلد الذي يدرس أو يقطن فيه أو حتى يزوره، ولذلك أمضيت فترة من عمري عندهم وترددت كثيراً عليهم، لأغراض علمية أو سياحية فلم أجد منهم إلاّ حُسن المعاملة وطيب الاستقبال،

ولكنني عندما ودّعت أحبائي وأصدقائي في المطار عائداً إلى الأردن، دخلت وزوجتي الباكية على فراق ابنتها إلى داخل المطار، فقلت في نفسي مازال لدينا متسع من الوقت قبل الإقلاع، لنذهب إلى السوق الحرة علّنا نشتري شيئاً ثم لأغير أجواء الوداع، وفعلا ذهبنا واشترينا بعض الحاجات الخفيفة، فما كان من زوجتي إلاّ أن حملت ما اشترينا ثم ذهبنا إلى القاعة المباشرة للصعود إلى الطائرة، وإذا بإعلان من خلال السماعات بالمطار ينادي على اسمي لمراجعة أقرب طاولة استعلامات، فعندما سمعت اسمي انتابتني كل وساوس الشيطان!، وقلت لزوجتي: يبدو أن المحذور قد وقع، والله خير الحافظين، ذهبت معي إلى أقرب نقطة، فعرّفت نفسي، فأخذتنا موظفة أمن إلى مركز أكبر داخل المطار، فاسُتقبلنا باحترام بالغ، وبعد أن تأكدوا من هويتي، سألني أحدهم هل

فقدتم شيئاً في المطار،عندها صاحت زوجتي لأنها تذكرت أنها نسيت حقيبتها الخاصة، عندما حملت المشتريات من السوق الحرة، وطبعاً هم يتعاملون مع كل متروك أمنياً على أنه قنبلة موقوتة، خاصة أن دماء أحداث سبتمبر لم تجف بعد، فلما لم يجدوا شيئاً ووجدوا بطاقتي الخاصة بالحقيبة نادوا عليّ لاستلامها، لا لشيء آخر، مرة أخرى لم نجد شيئاً مما تخوفنا منه.

ومن جميل المقادير أنني عندما عدت إلى الأردن من هذه الزيارة، وصلت بيتي فجراً، متعباً ومنهكاً من قلة النوم، فدخلت في سبات عميق، ولما كانت صلاة الجمعة على وشك أن تبدأ، صحوت وأسرعت وأبنائي كسباً للوقت إلى مسجد قريب صغير، لا أصلي فيه الجمعة عادة، وعندما دخلنا وصليت سنة المسجد، وإذا بالناس ينظرون اليّ، حيث أن خطيب الجمعة لم يأت، وأنا أتجاهل نظراتهم، لأنني لا أحب الخطابة لا من قريب ولا من بعيد، إلاّ أن الأمر أصبح لزاماً، فرضخت للأمر الواقع على مضض، وصعدتُ المنبر، وكانت القصة الأولى هي مادة الخطبة وكيف أننا نتهاون هنا في بلادنا العربية في ديننا، والناس في الغرب يُقبلون عليه زرافات ووحدانا ويلتزمون به، بعدما وجدوا فيه طعم السعادة الحقيقية.

المدير التنفيذي لمشروع وقاية الشباب

في ربيع عام ٢٠٠٥م ألقيتُ محاضرة للمعلمين والمعلمات وطلاب إحدى المدارس الكبرى في عمان بعنوان: «وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً»، وبحضور أحد علمائنا الأجلاء فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الكوفحي، أحد أبرز قيادات الإخوان المسلمين وعلمائهم في الأردن، وقد ذُهل من تفاعل الطلاب وأسئلتهم واهتمامهم بالموضوع، وفي جلسة لاحقة أثار الموضوع معي، وقال: «هذا موضوع تخصصي وهو مهم جداً لهذا الجيل، ولذلك أقول لك إنه فرض عين عليك، ومقدم على أي عمل آخر من الأعمال الاجتهادية الأخرى».

عندها فكرنا سوياً بفكرة المشروع والعمل الجماعي، حتى أنه أفتى لي أن أخصص جزءاً من زكاة أموالي لطباعة الكتب، وتغطية بعض النفقات المترتبة عليه، وطلبتُ منه أن يكون مستشاراً شرعياً للمشروع، فوافق، جزاه الله خيراً، فكان هذا موافقاً تماماً لاقتراح سابق قدّمه لي في الدوحة الأستاذ المبدع مأمون عريقات، بعد محاضرة لي في قطر أثناء الأسبوع الثقافي «شواطىء الحب».

كان هذا المشروع «مشروع وقاية الشباب»، وهو مشروع وقائي

لحماية الشباب من المخاطر التي تُحيط بهم في زمن الفضائيات والإنترنت، ركّزنا فيه على الجزء الأول منه «وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً والأيدز» تحت شعارعام نواجه فيه بعض نتائج الثورة الجنسية العالمية «نعم للفضيلة لا للرذيلة» و«يدا بيد لوقاية الشباب»، فكان رغم الإمكانات المتواضعة وقلة العاملين، من أنجح المشاريع الشبابية باعتراف القريب والبعيد، ولمسنا البركة وتباشير قبول هذا المشروع «كصدقة جارية» من مجمل التوفيق والتفاف الناس الكبير حوله، وحتى نعرف أهمية وضرورة هذا المشروع، لابد أن نعرف ما هي الأمراض المنقولة جنسياً؟، وما هو المشروع نفسه؟، وما الإنجازات التي تحققت للآن؟.

ما هي الأمراض المنقولة جنسياً؟

لم يذكر مؤرخٌ قط انتشار الأمراض المنقولة جنسياً إلاّ ذكر تحلل الناسِ من القيمِ العُليا، واتجاههم نحو المادية، وندرة الفضيلة لدرجة الغياب، وتغير نظرة المجتمع للجنس، ولهذا لا يمكن فصلُ الأخلاق عن الجنس، ولمثل هذا كان يُنادي فرويد، حيث يقول: «إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسي، وكلُ قيدٍ من دينٍ أو أخلاقٍ أو تقاليدٍ هو قيدٌ باطلٌ، ومدمر لطاقة الإنسان، وهو كبتٌ غير مشروع».

وهذا ما أكدته بروتوكولات حكماء صهيون حيث تقول: «يجب أن نعملَ لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس، لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه».

وهكذا انهارت الأخلاق، وأثمرت جنوناً جنسياً محموماً، وثورةً جنسيةً عارمة، تؤججها الأزياء وأدوات الزينة والتجميل والكتب الخليعة والمجلات الهابطة والأفلام الداعرة، كل ذلك بحجة الحرية الشخصية، وزاد الطين بلة ما تنفثه بعض الفضائيات جهاراً نهاراً، وما

يختزنه الإنترنت للشباب من عجائبَ وممارسات جنسية لا تخطر على بال، حتى أنها أصبحت بفخاخها تداهم من لا يبحث عنها، تستدرجه حتى يقع فريسة سهلة لها من حيث لا يعلم، والدليل على ذلك أن صفحة جنسية واحدة على الشبكة استقبلت عشرات الملايينٍ خلال عام واحد، جلهم بين (١٢-١٧) سنة من العمر.

والأمراض المنقولة جنسياً: هي مجموعة من الأمراض المعدية، تسببها ميكروبات مختلفة تنتقل من إنسان لآخر، بواسطة الاتصالات الجسدية وخاصة الاتصالات الجنسية أثناء الزنا والشذوذ وما يؤدي إليهما، ميكروباتها لا تنتقل بالماء أو الهواء أو الطعام، بل بالاتصال المباشر بين المصاب والضحية الجديدة، ومن الجدير بالذكر أنها لا تصيب البهائم رغم ما عندها من شيوع جنسي، وهذه الأمراض فرضت نفسها على العالم رغم تقدمه المادي المذهل، فهي تهدد مصيره، وتُفسد عيشه، وتُصيبه في الصميم، وتنكبه في زهرة شبابه، تعكس آثارها على الفرد معاناة وتشوهاً وخسارة مادية، وعلى الدول بأبعادها الاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية، ويمكن تلخيص ذلك كتابة بالحقائق والأرقام التالية:

أولاً: هذه مشكلة عالمية، لكنها أكثر ما تكون في المجتمعات الغربية، حيث ما يُسمى بالحرية الشخصية وخاصة الجنسية محمية بالقانون، وكل شيءٍ مباحٌ مهما كان ما دام برضى الطرفين، علماً أن إحصائيات منظمة

الصحة العالمية تفيد بأن (٤٪) من سكان الكرة الأرضية يصابون بأحد الأمراض المنقولة جنسياً سنوياً، فمنهم من يُعالج فيشفى ومنهم من تتعقد حالته.

ثانياً: أجازت الدنمارك عام ١٩٨٩م الزواج المثلي بحكم القانون، وتبعتها على الأقل عشرين دولة وبضمنها الولايات المتحدة الأمريكية، مما شجع الشاذين جنسياً على مستوى العالم، الذين ثبت أن أكبر نسبة لزيادة الأمراض المنقولة جنسياً هي بينهم وبسببهم، وفي عام ٢٠١٢م أقر الرئيس الأمريكي باراك أوباما الزواج المثلي، وسمح به وأجاز للشاذين الخدمة بالجيش الأمريكي، ليس هذا فحسب بل، أقر المجلس العالمي لحقوق الإنسان أن الشذوذ الجنسي أصبح حقاً من حقوق الإنسان.

وقد نُشرت دراسة في أمريكا من مركز مراقبة الأوبئة في أطلنطا (CDC) عام ٢٠١٥م تقول: رغم أن مرض السفلس وصل إلى أدنى مستوى له عام ٢٠٠٠م، إلا أنه عاد للظهور والزيادة بشكل كبير، (زاد ١٩٪ في عام ٢٠١٥م) خاصة عند الشاذين جنسياً، أما في بريطانيا فقد زادت نسبة الإصابات بينهم في السنوات الأخيرة بشكل ملموس، ورغم كل ذلك صدر قرار جمهوري في الولايات المتحدة الأمريكية نهاية عام ٢٠١١م، يربط توزيع المساعدات الأمريكية للدول الفقيرة بمدى تقبل هذه الدول للشاذين جنسياً.

ثالثاً: أصدرت منظمة الصحة العالمية في كشف الحقائق لعام ٢٠١٨م، أنه يُصاب في كل يوم أكثر من مليون إنسان بأحد الأمراض المنقولة جنسياً، ولذلك تحدث في كل عام مئات الملايين من الإصابات الجديدة بهذه الأمراض (حوالي أربعمئة مليون)، فمن المصابين من يموت، ومنهم من يتعالج في الوقت المناسب فيشفى، ومنهم من تبقى معه لسنين عديدة، تُشوه أعضاءه التناسلية وتُنكِّد عيشه، دون أن يتغير مظهرهُ الخارجي أمام الناس، لكنه أدرى بنفسه ولا يعرف سره إلا الطبيب.

رابعاً: جُلُّ المصابين بهذه الأمراض (٨٥٪) من الشباب بل المراهقين، حيث الفئة العمرية الواقعه ما بين (١٥ – ٣٠) سنة هم الأكثر إصابة بهذه الأمراض، حسب تقرير مركز مراقبة الأوبئة في الولايات المتحدة الأمريكية لعام ٢٠١٣م، وفي التقرير الذي سبقه في حزيران عام ٢٠٠٠م، أفادت (باميلا بيك) أن أكثر من (٧٠٪) من طلاب المدارس الثانوية يمارسون الجنس قبل تخرجهم، وأن (١٢٪) منهم على الأقل يُصابون بواحدٍ أو أكثر من الأمراض المنقولة جنسيا، وأنَّ (٢٠٪) من البنات البالغات مصاباتٍ بأحد الأمراض الجنسية دون أن يُدركن ذلك، علماً أن كل الدراسات اللاحقة أثبتت زيادة هذه الأرقام، ليس هذا فحسب، بل امتد الأمر ليصل بلادنا الإسلامية، ففي الدراسة التي

أجرتها مؤسسة (كمناس اناك) (هيئة رعاية الطفولة) في اندونيسيا عام ٢٠١٠م، وشملت أربعة آلاف وخمسمئة طالب وطالبة في المرحلة المتوسطة والثانوية، من اثنتي عشرة محافظة، أظهرت أن (٩٧٪) منهم يُراقبون الأفلام الإباحية، وأن (٦٣٪) من طالبات المرحلة المتوسطة قد فقدن عُذريتهن، وأن (٢١٪) من طالبات الثانوية قد أُجريت لهن عمليات إجهاض.

خامساً: يُنفق العالم سنوياً حسب منظمة الصحة العالمية أكثر من مائة وخمسين مليار دولار على كل ما يخص الأمراض المنقولة جنسياً، من خدمات وتشخيص وعلاج، فلو أنها تُنفق في مشاريع تنموية فلن يبقى في العالم جائعٌ ولا أمِّيٌّ ولا فقير.

سادساً: هذه الأمراض كانت في السابق خمسة، ولكنها ازدادت تدريجياً حتى أصبح عددها الآن عشرة أضعاف، وذلك بسبب الصرعات الجنسية الجديدة كالجنس بواسطة الفم والشذوذ الجنسي، حيث أصبحت جراثيم الجنس تظهر في حلوق ولوز الشباب والشابات، ونتيجةً لذلك تظهر أمورٌ جديدةٌ محيرةٌ للأطباء، منها حسب أحدث التقارير (عام ٢٠١٢م) ازدياد حالات سرطان الحلق بسبب فيروس ينتقل بالجنس والجنس الفموي عند الشباب في بريطانيا، الذي فاق كل التوقعات حتى أصبح الأول على مستوى سرطان الرأس والرقبة، ومن الجدير بالذكر أن

الدكتور (كنغ هولمز) يذكر في كتابه الجامع «الأمراض المنقولة جنسياً» الذي بدأ تأليفه عام ١٩٧٥م، أنه مع صدور الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٩٩٩م، ظهرت اثنتا عشرة جرثومة أو ذرية جديدة تسبب إصاباتٍ جنسيةً، لم تكن معروفةً في السابق، فلم تُدرج في الطبعة الأولى عام ١٩٧٥م، وهذا يذكرنا بقول رسولنا ﷺ: «ما ظهرتْ الفاحشةُ في قومٍ قط يُعمل بها فيهم علانيةً إلاَّ ظهر فيهم الطاعون (الوباء) والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم» رواه الحاكم.

سابعاً: هذه الأمراض لا هوية لها إلاّ الزنا والشذوذ والإباحية، لذلك تكثرُ في بعض المجتمعات والتجمعات السياحية، ومما يُساعدُ على انتشارها سرعة الاختلاط، وتقارب المسافات، وكثرة الأسفار والإنترنت التي جعلت العالم قرية صغيرة، ففاضت عادات وتقاليد شعوب الأرض على بعضها، والشباب يقلدون ما هو جديد بالنسبة لهم، وأقل ما تكون هذه الأمراض في المجتمعات المحافظة، التي تنظر للجنس خارج إطار الزوجية بأنه محرمٌ، وتقدسُ الإخلاص للحياة الزوجية، وتعتبره عملاً صالحاً يُتقرب به إلى الله، كما هو الحال نسبياً في مجتمعاتنا الإسلامية، لكن هذه المجتمعات ليست بعيدةً عن غيرها، وأن شبابها مستهدفون، خاصة أن الأعداء رفعوا شعار «الجنس والانحلال عناصر الحرب القادمة»، وأسهل طرق سيطرة الأعداء علينا وعليهم العبثُ بأخلاقهم وإيقاعهم

بمستنقعات الجنس الحرام، الذي يذهب بالأخلاق ويهدم الأسر ويفكك المجتمعات وينشر الأمراض، وفوق كل ذلك غضب إلهي وعقوبة ربانية، يُصدقه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء٣٢).

ما هو مشـــروع وقاية الشباب ؟

(المضمون والهدف)

فكرة المشروع:

بما أن العالم يُعاني من مشكلة الأمراض المنقولة جنسياً والإيدز، وهي التي سبق ذكرها، بسبب تفشي الفاحشة (الزنا والشذوذ) وانتشار الرذيلة، وهي باعتراف منظمة الصحة العالمية مشكلة عابرة للقارات وبازدياد مستمر، من حيث الأنواع وأعداد المصابين، وحيث أن جُلّهم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والثلاثين، ورغم أن هذه المشكلة منتشرة في جميع أنحاء العالم، إلا أنها ولله الحمد ما زالت عند حدها الأدنى في بلادنا العربية والإسلامية.

وبما أن العالم أصبح قرية صغيرة، ولأن المواصلات قرّبت البعيد واختصرت المسافات وسهلت السفر والاختلاط العالمي، ولأن الإنترنت أصبحت بعجرها وبجرها في متناول يد المراهقين، ولأن الثورة الجنسية قد بلغت ذروتها، وأصبحت الممارسات الجنسية علنية بحجة حقوق الإنسان والحرية الشخصية، وقاد الغرب حملات عالمية من خلال المؤتمرات الدولية المتتالية لتشجيع الشذوذ الجنسي والزنا، لهذا أصبح

شبابُ الأمة الإسلامية في خطرٍ متزايد، لأنهم مستهدفون ولأنهم في مرمى سهام الخصوم حيثما كانوا، ولأن الجنس والانحلال أصبحا من عناصر الحرب القادمة، لهذا ولغيره كان لا بد من تركيز الجهود الوقائية والتربوية والطبية لحمايتهم.

لهذا هبّ الاتحاد العالمي للجمعيات الطبية الإسلامية لعمل علمي عملي وبروح إسلامية، يحمي الشباب ويقيهم ويحذرهم مما يُحاك ضدهم ويُدبر لهم بليل، ولأن أعضاء الاتحاد مسكونون بهمّ الجيل وإحسان تربيته وإبعاده عن كل ما يؤذيه، وفوق هذا وبحكم الاختصاص هُم رواد في هذا المجال، والرائد لا يكذب أهله، فما كان منهم إلا تكليفي بإدارة هذا المشروع العملي العلمي من خلال المدير التنفيذي للإتحاد الأستاذ الدكتور علي مشعل (رحمه الله) تحت شعار: «يداً بيد لوقاية الشباب» من شرور هذه الأوبئة الفتاكة، التي تدمر روح الفضيلة والعفاف قبل فتكها بأجساد الشباب، «فنعم للفضيلة ولا للرذيلة».

التطبيق العملي للمشروع:

عكفت بعد تكليفي بهذه المهمة وبحكم إختصاصي على وضع مادة لهذا المشروع بالإضافة للكتب التي كنت ألفتها سابقا في هذا المجال، وبعدها قمت بالتعاون مع الجمعيات المدنية والرسمية باستقطاب

متطوعين من الشباب – وخاصة الأئمة والوعاظ والمعلمين والمعلمات والدعاة – لتدريبهم وتأهيلهم في دورات تطوعية مجانية، علمية دينية طبية، وزودتهم خلالها مع المحاضرات بملفات خاصة، وكتب متخصصة بهذه الأوبئة ومواد أخرى مساعدة، ثم شهادة رسمية من الاتحـــاد، كل ذلك مجاناً شريطة أن يقوم المتطوع أو المتطوعة سنوياً بعشر فعاليات توعوية، كل حسب اختصاصه، كالمحاضراتٍ في المدارس والنوادي والمساجد ومراكز الشباب والشابات، والجامعات، كلٌ في منطقته.

محتوى المشروع

يحتوي هذا البرنامج على ثلاث مستويات من الدورات كما يلي:

المستوى الأول: هو عبارة عن مجموعة من الدورات التمهيدية في الوقاية من مخاطر أمور استجدت على مستوى العالم، وبسبب الإنترنت ووسائل التواصل الإجتماعي أصبحت في متناول أيدي صغارنا وكبارنا من الشباب، ولهذا صممنا مجموعة من الدورات التمهيدية للأباء والأمهات والمعلمين والمعلمات، والأئمة والوعاظ، وطلاب الثانويات والجامعات، والمقصود منها تعريفهم وتوعيتهم بمخاطر هذه المستجدات، وتأثيراتها السلبية على تربية وسلوكيات الجيل الجديد، ومدة كل دورة تمهيدية يوم واحد، يُمنح من يُشارك فيها شهادة خاصة بهذا

المستوى، والدورات هي:

- وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً.
- التثقيف الجنسي الآمن في ضوء الشريعة الإسلامية.
- وقاية الشباب من الإدمان على المواقع الإباحية.
- وقاية الأطفال من التحرش الجنسي.
- الدورة الصحية الوقائية للمقبلين على الزواج.

من يستهويه أي من المواضيع أعلاه، ولديه وقت لخدمة الجيل تطوعاً، ينتقل إلى المستوى الثاني، ليتعلم أموراً أعمق وأدق.

المستوى الثاني: هو عبارة عن دورات لإعداد المحاضرين في وقاية الشباب،خاصة في الموضوع الذي يختاره، وهي مصممة للأئمة والوعاظ والمعلمين والمعلمات ومن في مستواهم العلمي والعُمري، ومدتها يومان، ومن يجتازها يُمنح شهادة خاصة بموضوعه من الاتحاد، ويتعهد بالمشاركة في عشر فعاليات سنوياً، تصب في أهداف البرنامج، خصوصاً تلك التي تستهدف عامة الناس مع التركيز على طلاب المدارس والمراكز القرآنية والشبابية، ومن يستمر معنا في البرنامج ينتقل إلى المستوى الثالث ليُصبح مدرباً في المشروع.

المستوى الثالث: هو عبارة عن دورات لإعداد المدربين في هذا المشروع، وهي مصممة لمن اجتاز الدورات السابقة وعمل بالمشروع

على الأقل لمدة عام، وأثبت اهتمامه بالجيل الجديد من الشباب، وقدم العديد من المحاضرات، وأحب أن يُكمل المشوار، ومدة دورة إعداد المدربين اربعة أيام، ولها دبلوم خاص من الإتحاد العالمي للجمعيات الطبية الإسلامية، ليُصبح مدرباً للآخرين في هذا المشروع، يقوم بتدريب المشاركين في المستويين الأول والثاني في منطقته أو قطره.

هدف المشروع:

يهدف المشروع إلى إرضاء الله تبارك وتعالى أولاً، وذلك بالعمل على إبعاد الشباب عن المحرمات وخاصة الزنا والشذوذ والمخدرات، لأنها محرمة أولاً وأُس المشكلة ثانياً، ثم رفدُ الجهود الوقائية المختلفة بما نستطيعُ لوقاية الشباب عامة وشباب الأمة الإسلامية خاصة من هذه الآفات والأوبئة، من خلال هذا البرنامج العالمي العلمي الطبي بمنظور إسلامي، وذلك بتدريب مئة ألف متطوع ومتطوعه في العالم مجاناً، لنضمن – بإذن الله – في كل عام مليون فعالية أو محاضرة توعوية وقائية، علمية طبية لتثقيف المراهقين في المدارس ومراكز الشباب علمياً ودينياً، ولتصحيح المفاهيم المخطوءة التي تُروج بكل الوسائل، ومن خلال مضامين الدورات التي يقوم بها خبراء غير مسلمين على طريقتهم، والتي إن صلُحت للغرب فلا تصلح لبلادنا، لأنها تتعارض مع ديننا الحنيف،

ولتثقيف الآباء والأمهات كيف ومتى يُثقفون أبناءهم وبناتهم جنسياً، لتزويدهم بالمفاهيم الصحيحة في ضوء الشريعة الإسلامية.

ورغم أننا نقدم خدماتنا الاستشارية وخبراتنا ومؤلفاتنا وكل دوراتنا مجاناً لشباب الأمة، في أي مكان أو قطر باللغتين العربية والإنجليزية، ورغم أنّ معظم الطلب يأتينا من الجمعيات المدنية التطوعية المختلفة، إلاّ أننا لا نجدُ أي تعاون أو تشجيع من الجهات الرسمية المتخصصة، بل الذي نجده هو مُعيقات ومعيقات، رغم انني قدمت هذا المشروع مباشرة لرئيس الوزراء ووزراء التربية والتعليم والتعليم العالي والاوقاف والشباب، وقابلتُ بعضهم مباشرة لهذا الغرض وشرحته لهم، مع الاستعداد لتقديم كل خدمات المشروع مجاناً دون أي تبعات مادية اطلاقاً، فلم نجد للأسف، إلاّ الصدود والجفاء وإهمال العرض تماماً، وهذا التصرف من الجهات الرسمية بالنسبة لي ليس غريباً، لأن الإقصاء والإبعاد لكل أمر جاد هو ديدنهم، لكن إعذاراً إلى الله.

كيف لا وكاتب هذه السطور هو خبير الإيدز في الاتحاد العالمي للجمعيات الطبية الإسلامية، وهو أول من ألّف كتاباً باللغة العربية عن مرض الإيدز "الايدز حصاد الشذوذ" بداية عام ١٩٨٦م ويُحاضر فيه في أنحاء العالم، ومع كل هذا، فهو ممنوع من أن يكون عضواً في اللجنة الوطنية العُليا لمكافحة الإيدز في الأردن، وسبب هذا الإقصاء وغيره

معروف لدينا تماماً، أبسطه أننا نعالج مشكلة الأمراض المنقولة جنسياً من خلال هذا المشروع معالجة إسلامية، لاتُجامل لا منظمة الصحة العالمية ولا برنامج الأمم المتحدة لمكافحة الايدز، حيث أنهم يشجعون الشباب على استعمال ما يُسمى بالعازل أثناء الزنا والشذوذ، وكأن الإباحية والرذيلة حلال والمشكلة فقط هو الايدز، ليتهم يحصرون أفكارهم الهدامة في بلادهم، ولكنّهم بالترهيب أحياناً والترغيب أحياناً أخرى، يُجبرون الدول التابعة لهم بالانخراط في برامجهم وشروطهم، ولهذا نجدُ بعض التعليمات والممارسات التثقيفية في بلادنا العربية والإسلامية لا تختلف عن ما يُمارس في بلاد الغرب، ومن يُريد المزيد فليرجع إلى مواقع مكافحة الايدز الرسمية في بلادنا من خلال الإنترنت.

ومع كل هذا فنحن جاهزون للتعاون مع كل من يتفهم حاجات الشباب ذكوراً وإناثاً، وما يتعرضون له من مُخططات تدميرية في كل نواحي الحياة، علماً أن دراساتنا تُفيد أن هناك مخططات وهجمة شرسة صامتة تخريبية على الشباب في العالم عامة، وعلى الشباب العربي خاصة، مع تركيز أكثر على الشباب في دول الطوق، لإسقاطهم وتدمير أخلاقهم، حتى يُصبح الواحدُ منهم أسيرَ شهوته؛ لأن الأعداء يعملون بصمت تحت شعار (الجنس والانحلال عناصر الحرب القادمة)، وهذا الانحلال إذا أصاب الشباب، ضعُفت الأمة وسهلُ سقوطها، وهذا ما يبحثُ عنه الأعداء.

وهدفنا القريب الذي أعلناه هو تدريب مائة ألف محاضر ومحاضرة شريطة أن يقوم كل واحد منهم بعشرة محاضرات في بلده سنويا، لنفوز بالنهاية بمليون محاضرة توعوية وقائية سنوياً ترفع منسوب الإيمان عند الشباب، وتبعدهم عن الإنحرافات التي تُغضب وجه الله، كما نريد أن نؤهل ألف مدربا ومدربة على مستوى العالم، ليحملوا راية المشروع ويضمنوا استمراريته.

ومع أننا قطعنا للآن (٤٠٪) من المطلوب، إلا أننا نأمل أن نكمل الباقي بزمن أقل، وذلك لما لدينا من محاضرين ومدربين، يتنافسون تطوعاً في أداء هذا العمل الخير، راجين من الله القبول والعون والثبات والتوفيق والسداد، ولله الأمر أولاً وأخيراً.

الإنـجــازات حتى الآن

قمنا بفضل الله بالأمور التالية:

١ – عقدنا ولله الحمد ثمانمائة وثلاث وأربعين دورة تدريبية، وصلنا إلى اثنين وخمسين دولة منها المملكة العربية السعودية، الأردن، فلسطين، البحرين، قطر، الجزائر، المغرب، السودان، لبنان، اليمن، نيجيريا، غان، ماليزيا، اندونيسيا، تونس، تنزانيا، تركيا، ليبيا، جنوب إفريقيا، الصين، زنجبار، جزر القمر، وأستراليا.....الخ

٢- تدريب واحد وأربعين ألف محاضر ومحاضرة، وهم من حوإلي ستين جنسية مختلفة.

٣- طبع وتوزيع حوالي مليون ونصف المليون نسخة من الكتب الخاصة بالمشروع مجاناً.

٤- توزيع عشرات الآلاف من الأقراص المدمجة والخاصة بهذه الأمراض والمصورة تلفزيونياً مجاناً.

٥- تأليف أربع وثلاثين كتاباً مرجعياً لمادة المشروع، محملة على موقع المشروع للتحميل المجاني.

٦- تدريب وتأهيل أربعمائة وواحد وثلاثين مدرباً ومدربة في دول مختلفة، وبلغات مختلفة.

٧- قمنا بالقاء أكثر من نصف مليون محاضرة، حسب ما وردنا من التغذية الراجعة.

٨- تم توزيع مليوني منشور مطبوع على طلاب المدارس والمعاهد.

٩- طُبعت كتب المشروع باللغة العربية والإنجليزية والأندونيسية والكردية في الأردن ولبنان وكوردستان والبحرين واندونيسيا ومصر.

١٠- استفاد من محاضرات المشروع وكتبه مباشرة أكثر من ثلاثين مليون شخص تقريباً، أما الكترونياً فلا نستطيع الحصر.

١١- سجلنا وصورنا مائة وثلاثين حلقة تلفزيونية تحت عنوان

«هل تعلم ؟» وهي تبث على الفضائيات.

١٢ - نتواصل مع معظم أعضاء فريق وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً والإيدز المنتشرين في العالم من خلال تزويدهم بالمُستجدات والرسائل التوجيهية.

١٣ - أقمنا علاقات تعاونية مع جمعيات مختلفة، وخاصة جمعية العفاف الخيرية في الأردن وجمعية الإصلاح في مملكة البحرين ومنظمة نوافذ الخير السودانية، ومنظمة وابل الخير الخيرية، وجمعية الضياء، في غانا والندوة العالمية للشباب الإسلامي، وجمعية الإصلاح الاجتماعي في الكويت -مكتب اندونيسيا- وجمعية جزائر الخير الجزائرية، ومنظمة إكرام الماليزية، وجمعية إصلاح ذات البين في مكة المكرمة، ومنظمة بت مكلي القومية في السودان، وجمعية تحت العشرين في المغرب والأتلاف المغاربي لمكافحة الأمراض المنقولة جنسياً والمنظمة التونسية للدعوة والإصلاح، ومنظمة مكة للصحة الإجتماعية في مورتانيا. لأن هذه المنظمات تعتمد أسلوبنا الإسلامي في مجابهة هذه الأوبئة.

١٤- انشاء أربع واجهات إلكترونية ما بين موقع ورابط تخدم الشباب بخصوص هذا المشروع أهمها (www.qudah.com).

١٥- إجراء مئات اللقاءات الإذاعية الخاصة بمضمون المشروع في دول مختلفة مع حلقات نقاشية توعوية.

١٦- إجراء عشرات اللقاءأت التلفزيونية على الفضائيات بخصوص مضمون المشروع، تعريفاً وتوعية.

١٧- نشر مئات التحقيقات الصحفية في صحف مختلفة ومواقع الكترونية عن هذا المشروع.

١٨- تنفيذ دورات إلكترونية عبر الإنترنت مفتوحة للجميع من قبل أحد أعضاء الفريق من مملكة البحرين تحت عنوان «أخلاقي سرُ نجاتي من الأمراض المنقولة جنسياً».

١٩- تنفيذ حملات «عفتي سعادتي» السنوية في المملكة المغربية التي انطلقت من مدينة وجده منذ سنين. وقادها بنجاح فريق وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً والإيدز هناك.

٢٠- البدء بالتحضيرات الأولية لتصميم منهاج لدرجة الدبلوم في التثقيف الجنسي في ضوء الشريعة الغراء، بالتعاون مع إحدى الجامعات اللبنانية.

ولا زال فريق مشروع وقاية الشباب العالمي ينمو ويكبر ويعمل بمنتهى الجد والنشاط، ولله الحمد والشكر.

لكل شيء إذا ما تم نقصان !

في نهاية صيف عام ٢٠١٦م عزمت على تجديد المختبرات (مختبرات القضاة التخصصية) شكلاً ومضموناً، بغض النظر عن التكاليف، وكان ذلك باقتراح من أبنائي الذين يشاطرونني نفس المهنة، وفعلاً كان كل ما نريد – بفضل الله – من تطوير للبناء، وتحديث للأجهزة على أدق وأحسن المواصفات، حيث تم ذلك خلال شهرين من الزمن، ووضعنا لائحة داخلية تضبط جودة العمل وساعاته حسب قانون وزارة الصحة تماماً، وتثبّت حقوق المختصين والفنيين العاملين بما ينسجم مع قانون العمل والعمال الأردني.

كنّا فرحين جدا بهذا الإنجاز، وزاد من فرحنا وبهجتنا ما كنّا نسمعه من المراجعين من إطراء وثناء على هذه القفزة النوعية التجديدية، حيث أصبح المكان واسعاً، ويفصل كل ما يخص النساء من إنتظار وحمامات وسحب للدم عن كل ما يخص الذكور، علاوة على التكييف الذاتي صيفاً وشتاءً، وتجديد الأجهزة الأتوماتيكية من أعرق الشركات العالمية المعروفة بـ(شركة روش العالمية)، وإدخال سلسة من الفحوصات الجديدة التي لم تكن تُعمل في القطاع الخاص سابقاً مع أجهزتها، ومما زاد بهجتي شخصياً أن أحد أبنائي قد أنهى تخصصة في أمراض الدم، والتحق

معي بالعمل ليحمل عني بعض العبء.

في خضم هذه الفرحة بالإنجاز شعرت يوماً ببعض التعب والإرهاق، ووجدت أن قوة الدم عندي أقل من المعتاد، فراجعت الطبيب وطلب مني صوراً اشعاعية طبقية وما يتبعها، وفعلاً عملت كل ذلك، وتولى إبني متابعة الأمر بحكم تخصصه وعمله بمستشفى الملك المؤسس التابع لجامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية، وفي نهاية اليوم أخبرني ابني بالنتيجة، التي أظهرت كتلة سرطانية في نهاية الأمعاء الغليظة، ولا بد من إزالتها جراحياً وبالسرعة الممكنة، لأنها متقدمة ومن الدرجة الرابعة القابلة للإنتشار، فبحمد الله لم ازد على قول «الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه»، وتذكرت قول أبي البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نُقصانُ فلا يُغرَّ بِطيبِ العَيشِ إنسانُ

فَجَائِعُ الدهرِ أنواعٌ مُنَوّعةٌ ولِلزّمان مَسَراتٌ وأحزانُ

كان لدي في حينها دعوة من وزارة الشباب السودانية لتنفيذ عدة دورات في وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً والايدز في الخرطوم، وكان البرنامج مرتباً ومكتملاً، وأيام السفر محددة، والناس هناك جاهزون، فقررت إمضاء البرنامج كما هو، والسفر رغم عدم رضى الأطباء عن ذلك، لأنني أعتقد أن العمل الصالح إذا قبله الله تبارك

وتعإلى فمفعوله سحري، وكما قيل: الناس في مساجدهم والله في قضاء حوائجهم، فعلاً سافرت وقمت بكل المطلوب على أتم وجه دون أن يعلم أحد منهم بشيء، علما أنني أشعر برضى نفسي وقوة وطاقة كبيرة لا اعهدها بالعادة إلا عند الإنجاز.

عُدت من السودان مسروراً بما عملت، وبعد أيام من الراحة، سلمتُ نفسي للجراح، ومن حُسن حظي أن الجراح هو أبن أخي الذي كُنت أثق وأفتخر بإنجازاته وهو مقيم في الجراحة، فكيف بي وهو مختص ماهر بعد طول خبرة وتمرس، وفعلاً أجرى لي العملية وازال الكتلة السرطانية مع كل ما يلزم طبياً وإحتياطياً من قص الأمعاء الغليظة، ومن كثرة الأحباب – ولله الحمد – ودعواتهم الخالصة المخلصة، تماثلت للشفاء من العملية بسرعة، ولم أشعر بأي شيء من الآلام، خاصة أن الجراح قد أراحني كثيراً لأنه كان يأتيني – جزاه الله خيراً – من عمان إلى البيت في إربد، حاملاً كل ما يلزم للكشف على الجرح.

دارت الأيام، وعادت لي بعض عافيتي، وبدأت أمارس بعض نشاطاتي المعتادة في داخل الأردن وخارجه، وحسب طلب الأطباء كنت بين الفينة والأخرى أُجري الفحوصات المخبرية والصور الشعاعية التي يطلبونها، وذات مرة إكتشفوا أن هناك إنتشار بسيط لكتل صغيرة متفرقة، فقرروا أن ابدأ بجرعات علاج كيماوي متتالي بالوريد حسب بروتوكولها

المتعارف عليه طبياً، وفعلاً أخذت أثنى عشرة جرعة على مدى النصف الأخير من عام ٢٠١٧م، ورغم أن أبني وزملاءه الأطباء، وأهل بيتي قد هوّنوا عليّ الأمر كثيراً، حيث كانوا يُجرون كل ذلك لي في البيت، بعيداً عن المستشفى، إلا أن الأثار الجانبية النفسية والجسمية للكيماوي، وطول مدته تحتاج إلى صبر وجلد كبيرين، لأن المرض والصبر عليه، والأخذ بالأسباب الصحيحة، هي من أسباب عفو الله وغفرانه، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ حين قال: «ما مِن مُسلِمٍ يُصيبُهُ أذًى إلا حَاتَّ اللهُ عنه خَطاياهُ، كما تَحاتُّ ورَقُ الشَّجَرِ» (رواه البخاري)، وفي الحديث المتفق عليه قال: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غَمّ حتى الشوكة يُشَاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه» (متفق عليه).

وبحكم ما أكرمني الله به من منحة المرض، ثم قرار الأطباء بالمثول للعلاج الكيماوي، الذي أستدعى أشهراً متتالية في البيت، بأيامها ولياليها، أصبح عندي من الوقت الكافي للكتابة والتأليف، وكان رمضان ببركاته أحد هذه الأشهر، فما كنت أتردد في كتابته في السابق عجزاً؛ خاصة ما تعلق بالأمور العلمية الطبية، وجدتُ نفسي مقبلاً عليه بفضل الله بهمة عالية، فوضعت بفضل الله ثلاثة كتب، واحد باللغة الإنجليزية للشباب، والثاني بعنوان «خواطر علمية» أما الثالث فبعنوان «أوراق متناثرة»، كما سجلت في فترات الإستراحة بين الجرعة والأخرى مائة وثلاثين حلقة

تلفزيونية تحت عنوان «هل تعلم».

كل ما سبق من الجُرعات الكيماوية لم يُحدث فرقاً في إزالة الكتل الصغيرة التي وصلت إلى اثنين وعشرين نقطة، ولكنها ربما ساعدت في منع زيادتها، كان ذلك في نهاية عام ٢٠١٧م، وبعد التداول مع الأطباء المختصين في الداخل والخارج، كان القرار أن اخضع لعملية كُبرى في الخارج لعدم توفرها في الأردن في حينه، هذا النوع من العمليات يُجرى في لبنان وتركيا والغرب عامة والمملكة العربية السعودية، فاستراحت نفسي لاجرائها في مدينة الملك عبدالله الطبية في مكة المكرمة، وذلك لاسباب عدة، أولها بركة المكان وقُدسيته وثانيها وجود ثلة من الجراحين أصحاب الإختصاص والفنيين المتمرسين بهذا النوع من العمليات واجهزته، وليس أخرها وجود مجموعة كريمة من الاصحاب والاحباب والخبراء المهرة الأردنيين الذين يعملون هناك.

وبعد سلسلة من المشاورات والإستخارات، والمزيد من المعلومات عن هذا النوع من الجراحة، خاصة لمن هم في مثل عمري الذين تجاوزوا السبعين عاماً، كان القرار أن نأخذ بكل الأسباب المتوفرة، طاعة لله، مع القناعة التامة بأن الأجل محدود، بجراحة أو بدونها ، عندها رتب ابني مع جملة من معارفه المختصين العاملين في مدينة الملك عبدالله الطبية في مكة المكرمة، حيث تُعمل مثل هذه الجراحة المعقدة، سافرت برفقة زوجتي

وابني، وبعد أن اعتمرنا وأخذنا قسطا من الراحة، راجعنا المدينة الطبية من خلال معارفنا، وكان ذلك في شهر شباط عام ٢٠١٨م.

وبعد الإدخال وإجراء سلسلة من الفحوصات والصور والتنظير المطلوب كنت جاهزاً للعملية، حيث ودعت زوجتي وأبني التاسعة صباحاً، ورأيتهم ربما بعد يومين، حيث استغرقت العملية كاملة حوالي ثلاثة عشر ساعة متواصلة وتبعها يوم وليلة في الإنعاش الذي لا يصحو فيه المريض.

لقد أكرمني الله بكثير من الطمأنينة، وأكاد اقول الهدوء وعدم الإهتمام، وكأن العرس عند جيراننا – كما يقولون – رغم كثرة ما كان عندي من معلومات نظرية عن العملية ومخاطرها، على عكس زوجتي التي لولا كثرة الدعاء والصلاة لكانت قاب قوسين أو أدنى من الإنهيار، أما أبني فهو طبيب واقعي، عنده الكثير من الجلد لما مرّ به من مرضى، رغم أن المشاعر تتبدل وتتغير إذا كان المريض من خاصته.

طبعا أنا لا أذكر إلا يوم ودعتهم صباحاً قبل العملية، ثم عندما رأيتهم بعد يومين وليلة تقريباً، حيث فتحت عيناي في غرفة الإنعاش، وأذا بي على أجهزة التنفس الصناعي، مثبّت بالعديد من المرابط والأنابيب والتوصيلات من كل جانب، لا أكاد اتحرك مما رُبطت به رجلاي، لكنني لم أحس بأي ألم بسبب العلاجات المتنوعة التي تُعطى لمثل هكذا حالات.

العملية في مرحلتين جراحية وكيماوية، حيث حاول الجراحون عمل المطلوب بالمنظار تخفيفاً عليّ، إلا أنهم لم يستطيعوا، فأضطروا إلى الجرح الرئيسي من أعلى إلى أسفل البطن مروراً بالسرة وبطول خمس وعشرين سنتيمتراً على الأقل، ليصلوا إلى كل ما يريدون، وقص المناطق المتضررة، ثم اخاطوا كل الجروح الداخلية والخارجية، أما الجزء الثاني من العملية فهو نفخ وربط المريض بالجهاز الكيماوي الخاص بعد وضعه على رجاج، ثم إدخال العلاج الكيماوي الحامي (حرارة عالية) من خلال انابيب خاصة إلى كل تجويف البطن لغسله تماماً، وللقضاء على أي خلية سرطانية فيه لمدة ساعة ونصف، ثم اخراج الكيماوي منه بنفس الطريقة، ثم تضميد باقي الجروح الجانبية.

كان تعامل الفريق الطبي والإداري معنا راقياً، حيث خصصوا لنا غرفة ليمكّنوا زوجتي من ان تكون معي دائماً، ورغم خدمتهم المتواصلة ليلاً ونهاراً، إلا أن وجود زوجتي كان ضرورياً، وكانت أكبر مشكلة واجهتنا هم كثرة الزوار، فرغم منع الطبيب لذلك والكتابة على باب الغرفة والتعليمات عند الحرس في المدخل الرئيسي، إلا أن الطبيب كاد أن يفقد اعصابه، (وقال رايحين نخسر كل تعبنا)، خاصة أنني بدأت اسعل، وكأنني التقطت عدوى من أحدهم بسبب ضعف المناعة عادة بعد الكيماوي، مما أضطر الطبيب الجراح على غير العادة أن يُخرجني من

المستشفى بعد اسبوع فقط من الجراحة، إلى شقة في سكن الأطباء، مع كل التعليمات والأدوية اللازمة، هروباً من الزوار.

أحمد الله على كثرة الأصحاب والأحباب من العاملين في السعودية، ومن جاء في موسم العمرة من الأردن، ومن أقاربي الذين تفاجأت من كثرتهم في تلك البلاد المقدسة، إلا أنني اعتقد جازماً أن بعض الزيارت للمريض أحياناً يجب أن تكون محرمة، لما لها من أثر سلبي على نفسية المريض وجسمه، ولابد من إعادة النظر في ثقافتنا التي تحركها العاطفة أكثر من المصلحة، إذ قل لي: أين مصلحة مريض محطم المناعة، منهك الجسم، يلبس كمامة، جروحه مكشوفة، وعورته بالكاد مغطاة، أين مصلحتة بتقبيله والجلوس عنده لمدة طويلة ؟!!، وبالمقابل إنهالت على أبني رسائل لا حصر لها، تسأل وتدعو الله لي بالشفاء، فجزى الله مرسليها كل خير، وإذا نسيت فلا أنسى رسالة صوتية رقيقة ترفع المعنويات، مسجلة من معالي الأخ الكبير الأستاذ الدكتور اسحاق الفرحان –رحمه الله رحمة واسعة –.

تماثلت بفضل الله للشفاء النسبي بسرعة، لكن لا بد أن ابقى ممدداً معظم الوقت، حتى مرّ الاسبوع الثاني، واستعدت الكثير من العافية والمقدرة على السفر، عندها قررنا العودة إلى الأردن لكن بتكتم شديد، حتى لا نقع مرة أخرى بما وقعنا به في ما يخص الزوار، خاصة الأمر مع

الأقارب أكثر حساسية، وفعلاً نجحنا بذلك لمدة شهر تقريباً، بعدها كنت أستطيع الجلوس والإستقبال، والمشكلة أن من تحب مجالسته بعد طول غياب، لا يلبث أن يستأذن حسب السنة المطهرة لزيارة المريض، والأخر يجلس ويطيل فعلاً، عدا عن البعض الذي يُشعرك دون قصد أنه قادم ليلقي عليك النظرة الأخيرة، وبعضهم يدعو لك ويكاد يقول «اللهم اغسله بالماء.... ونقه من خطاياه....»، المهم أن عامة الناس يضعون مريض السرطان على قائمة الأموات، وكأن الباقين مخلدون، لم تؤثر بي مثل هذه الأمور اطلاقاً ولله الحمد، كما هو يقيني بأن المرض لا يقربُ ولا العافية تُبعد الموت عن أحد، كما قال المولى عز وجل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف٣٤).

سمح لي الأطباء بمزاولة عملي كالمعتاد، في الأردن وخارجه، وقد كنت سعيداً بذلك، لأنني أجد راحة حقيقية بالإنجاز، نفذت العديد من الدورات التدريبية لوقاية الشباب في الأردن، وسافرت لنفس الغرض إلى لبنان وتركيا وكوردستان وتنزانيا...الخ، طلب مني الأطباء عمل الصور الشعاعية والفحوصات المخبرية المختلفة كل شهر تقريباً، وكانوا يجدون ثلاثة نقاط متقاربة على غشاء الكبد، ورغم أن نموها بطيئٌ جداً، إلا أن بعضهم لم يُعرها إهتماماً كبيراً، ولم يُرتبوا عليها إجراءات طبية، لكنهم أمروا بمراقبتها، حتى إذا نشطت أكثر- لا قدر الله - يتدخلوا

جراحياً مرة أخرى بالوقت المناسب، بينما البعض الآخر يرى أنه لا بد من إزالتها بالسرعة الممكنة، بعملية جراحية جديدة كسابقتها تماماً،لأنهم يعتبرونها قنبلة موقوتة، فإذا أضطررت لعملية جديدة فستكون في مركز الحسين للسرطان في عمان، لأنه بدأ يُجري هكذا جراحة بعد أن تمت التجهيزات الطبية اللازمة والكوادر البشرية المدربة، راجياً العزيز الجبار أن لا أحتاج لذلك.

ورغم أنه يبدو لي أن مريض السرطان لا ينظف من أثاره وخلاياه، وهو تحت التهديد دائماً، إلا أنني ولله الحمد والمنّة، أشعر بنشاط وهمة عالية للمزيد من العطاء في عملي، وفي مجال مشروع وقاية الشباب من الأمراض المنقولة جنسياً خاصة، الذي فرّغت له نفسي متطوعاً، علّ خيره وأجره وبركته تكون خبيئة لي عند من لا يضيع عنده شيء، ففي ما يُروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما تصدق الناس بصدقة مثل علم يُنشر».

المحطة الأخيرة..... القبر !!

وخلصتُ من كل ماسبق أن التربية الإسلامية في الصغر، ثم إحسان العمل في الكبر، والتركيزُ عليه، والصحبة الصالحة، والزوجة الصالحة، واستيعاب الآخرين، والاستفادة مما عندهم من خير وحُسن التعامل معهم والتودد إليهم وخدمتهم والإنصات للرأي الآخر وحُسن الاستفادة منه، ثم الاهتمام بمشكلات الناس وهمومهم، ومحاولة مساعدتهم وحب الخير لهم، ومجالسة الصالحين من العلماء العاملين، ثم التطور مع الزمن، واستيعاب لغة العصر وتطوراتها، والتصرف بواقعية وحكمة وتواضع بعيداً عن الفوقية والاستعلائية القاتلة، والمشاركة بتحمل هموم الناس عامة والمسلمين خاصة، والبعد عن الذاتية والنجومية، والشعور باستقلال العمل في جنب الله ليكون دافعاً للمزيد، واستعمال ما أنعم الله به وسخره للإنسان، من وسائط ووسائل علمية وتكنولوجية، ومتابعة كل جديد ما أمكن، مجبول بنية صادقة ضمن التصور الإسلامي للحياة، هدفها إرضاء الله تبارك وتعالى، هي من أهم أسباب النجاح في هذه الحياة، والتوفيق أولاً وأخيراً هو من عند الله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

وحياتنا في الدنيا مهما طالت فهي قصيرة وإلى نهاية، ونحن كل يوم للقبر أقرب دون أن نشعر، والسعادة الحقيقية ليست بجمع مال أو جاه أو سلطان، إلاّ إذا اُستعملت بحقها، ولكنّها بتقوى الله وتحويل الحياة بالنية السليمة، والعمل الدؤوب والأخذ بالأسباب إلى طاعات نحصد أجرها وثوابها، من الذي لاتخفى عليه خافية، ثم شكرُ نعم الله الكثيرة علينا، فنحن ننعم بصحة في بدن، وأمن في وطن، وغذاء وكساء، وهواء وماء، وبنين وحفدة، وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها.

وصدق صاحب الظلال حين قال: ليست الحياة بعدد السنين، فعندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود، أما عندما نعيش لغيرنا، أي عندما نعيش لفكرة، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض، إننا نربح أضعاف عمرنا الفردي في هذه الحالة، نربحها حقيقة لا وهماً، فتصور الحياة على هذا النحو، يُضاعف شعورنا بأيامنا وساعاتنا ولحظاتنا، فحقاً ليست الحياة بعدد السنين، ولكنها بعدد المشاعر.

ومهما عملت وقدمت فإنني مقصر بحق ربي، ولن أدخل الجنة بعملي، إلا إن تداركتني رحمة ربي، فتقصيري شديد وذنوبي كثيرة مهما نجحت في إخفائها عن الناس، وما فائدة الإخفاء ما دام يعلمها علاّم

الغيوب، ولكنه للطفه وكرمه عليّ ورحمته بي يُمهل ويستر ولا يفضح، وصدق الشاعر الذي قال:

كيف إصلاحُ نفوسٍ إنّما هنّ قروحُ
أحسن اللهُ بنا أنّ الخطايا لاتفوحُ
فإذا المستورُ منّا بين جنبيه فضوحُ

وختاماً، فإنني بعد الأخذ بما استطعت من أسباب، لا أملك إلاّ التضرع لصاحب الأمر، مالك الملك، العلّي القدير أن يتقبل ما مضى من عملي، ويُصلح ما بقي منه، ويُحسن خاتمتي، ويستعملني في ما يُحب ويرضى، ويقبض روحي في أحسن حال، وعلى أفضل الأحوال، إنه على كل شيء قدير، وأتضرع مع الشافعي رحمه الله حين قال:

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأنّ عفوك أعظمُ
إن كان لا يدعوك إلاّ محسن فمن الذي يرجو ويدعو المجرمُ
أدعوك ربّ كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدي فمن ذا يرحمُ
مالي إليك وسيلة إلاّ الرجا وجميلُ عفوك ثم إنّي مسلمُ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين